عين الجمل

1

تمكنت أن أغرف من الينبوع الوحيد في المنطقة نصف سطل من الماء قبل أن أسمع جعجعة صوت فوق تلك السهوب، جاء حاداً وقوياً.

- إ. إيه! أيها الأكاديمي، سأصفعك على بوزك - إ - انتظر قليلاً!

لقد جمدت في مكاني، واستمعت بانتباه إلى ذلك الصوت، علماً أن اسمي هو كميل، ولكن لقب "أكاديمي" قد اكتسبته هنا، وهذا ما كان: فالجرار في الجهة الأخرى يقف بلا عمل، وهنا يهددني واحد بأنه سوف يصفعني على بوزي، - إنه أباكير. ومرة أخرى يصرخ مهيناً لي، ويشتمني، ويرفع قبضة يده ملوحاً بالضرب. فعدد الجرارات، اثنان، أما أنا - فواحد. وعليَّ أن أجهز لهما على هذه العربة ذات الأربع عجلات، التي يجرها حصان واحد المياه، والوقود، والشحوم، وما إلى ذلك من قطع غيار. زد على ذلك، أن الجرارين، ومع كل يوم كانا يبتعدان في عملهما بعيداً في السهول، وبعيداً عن النبع الوحيد في كل المنطقة. وهما، أكثر وأكثر، يبتعدان عن المنطقة الأرضية المخصصة لنا على وجه الكون، حيث يتم الحفاظ على صهريج الوقود الوحيد. وحاولنا أن ننقله إلى مكان آخر. فباءت مساعينا بالفشل، وهو أيضاً مرتبط بالماء. وهذا أباكير، لا يريد أن

يسمع، ولا يرى، ولا يعرف شيئاً، وأخذ يقول بقرارة نفسه: - "حتى لو جربت، وضربته على وجهه، فما النتيجة من هذا! فأنا ليس من أجل هذا هنا، أعمل كالحمار، حتى أضيع الوقت، بسبب طويلب ضعيف الإرادة!".

أما أنا، فلست بطويلب على الإطلاق. وحتى لم أحاول يوماً أن أدخل إلى معهد. وجئت، بعد أن أنهيت المدرسة الثانوية إلى هنا مباشرة، إلى منطقة آنارخاي. عندما أرسلونا إلى هنا، وقالوا في الاجتماع المخصص لهذا الأمر، أننا، ويقصد أنا ورفاقي، - "المروضون الأمجاد للأرض البكر، وطلائع، لا نهاب المصاعب لإحياء المناطق البكر الوعرة". هذا أنا، كنت في البداية، أما الآن؟ من المعيب أن أقول: "أكاديمي" هكذا كان يلقبني أباكير من باب السخرية. وأنا أخطأت بحق نفسي. فلا أستطيع أن أخفي ما أفكر به، وأتكلم عما في قلبي بصورة مسموعة، وأمام الجميع، كالولد، والناس فيما بعد يسخرون مني. وحبذا لو كان واحد يعرف، أنني لست المخطئ في هذا كله، بقدر ما كان مخطئاً مدرسنا لمادة التاريخ ألدياروف، الخبير الطبيعي للمنطقة! فأنا كنت أصغي بانتباه إلى خبيرنا الطبيعي، وها أنا أدفع نتيجة انتباهي وإصغائي.

وهكذا، ملأت البرميل حتى النهاية، وانطلقت من الوحدة إلى الطريق. وبكلمة، لم تكن هنا طرقات. ولقد شقت هذه الطريق هنا في بداية الأمر بعجلات عربتي.

كان الجرار يقف في نهاية أرض واسعة سوداء. وفي أعلاه - في الحجرة - كان أباكير يهدد بكلتا قبضتي يديه في الهواء، وهو يشتمني بأسوأ الشتائم في الدنيا.

ضربت الحصان، فأخذ يركض، أما المياه في البرميل، فقد أخذت تتطاير منه على ظهري، ولكنني لم أهتم بهذا، فانطلقت بسرعة الحصان القصوى.

فأنا الذي طلبت أن يرسلوني إلى هنا، ولم يجبرني أحد على هذا، أما الآخرون من رفاقي فقد اتجهوا إلى كازاخستان، إلى الأراضي البكر الحقيقية، التي يكتبون عنها في الصحف. أما بالنسبة لأنارخاي فأنا وحدي، الذي طلبت أن أتجه إليها. وهنا بدأ العمل في الاستصلاح في هذا الربيع، ولم يرسلوا عدا الجرارين. وفي السنة الماضية جرب المهندس الزراعي ساروكين - هو هنا القائد لنا جميعاً - أن يزرع الشعير رباعي السنابل* في قطعة أرض غير كبيرة، وقال أن النتيجة كانت جيدة. وإذا تم توسيع زراعته، فإن مشكلة الأعلاف للمواشي في المنطقة، ستحل كلياً.

ولكن، وحتى الوقت الحاضر، كان علينا أن ننشط بحذر، فإن الصيف في منطقة أنارخاي جاف وحار جداً، حتى النباتات الشوكية - تاش - تيكين - تعاني من الجفاف واليبسان قبل أن تنمو كما يجب وتأخذ وضعها الطبيعي. أما بالنسبة للكولخوزات، الذين يرسلون مواشيهم إلى هنا في أيام الخريف لقضاء فترة الشتاء هنا، فلم يتخذوا قراراً بزرع المحاصيل اللازمة لهم، وهم ينتظرون: - لنرى، ماذا سينجم عن نشاط الآخرين. ولذلك كان عددنا هنا قليل، ومن الممكن عدنا على الأصابع: اثنان يعملان كسائقين للجرارين، ومساعدان لهما، وعاملة مطبخ. وأنا - لنقل المياه، والمهندس الزراعي

* يوجد نوع من الشعير "رباعي السنابل"، أي أن السنبلة تتكون من أربعة صفوف من الحب بدلاً من صفين عند الشعير العادي. وتشبه سنبلة الشعير هذه سنبلة القمح الطويلة. - (المترجم).

ساروكين. هذا هو، كل الجيش، الذي سيروض الأرض البكر الوعرة، ويحولها لأرض زراعية، وكان من الصعب أن يعرف أحد شيئاً عنا. ونحن منعزلون كلياً، لا نعرف ماذا يحدث في العالم، وفي بعض الأحيان كان ساروكين يحمل إلينا خبراً ما. فهو يذهب على صهوة حصانه إلى الدساكر المجاورة، إلى الرعاة، ومربي المواشي، وهناك توجد محطة لاسلكية، فيتحدث مع القيادة بحدة بالهاتف، ويعلمهم باختصار عن مجمل النشاط.

- نعم، أما أنا فكنت أعلم - أن الأراضي البكر تمتد على مساحات شاسعة! وعلى أي حال، هكذا كان يحكي لنا مؤرخنا ألدياروف "هذه السهوب الملينة بالشيح البري، ممتدة من جبال كورداي وحتى مستنقعات القصب، في منطقة بلخاش! وحسب ما وصل لنا من الأزمنة الغابرة، أن قوافل من البشر، قد تاهت في تلال أنارخاي، وهلك كل من كان في هذه القوافل مع قطعانهم الكثيرة، وفيما بعد عاشت قطعان كبيرة من الخيول البرية في هذه المنطقة، وكانت أنارخاي - شاهداً صامتاً للعصور الغابرة، وساحة للمعارك الكبيرة في التاريخ، ومهداً للقبائل الرعوية المتنقلة، وفي أيامنا، كتب لمنطقة أنارخاي أن تكون منطقة غنية جداً في تربية المواشي".. وهكذا دواليك، وعلى المنوال نفسه...

كان من الممتع أن ينظر الإنسان إلى أنارخاي على الخارطة، فهناك نجدها قدر مساحة الكف. أما الآن، ومنذ طلوع الفجر يبدأ عندي يوم العمل ذهاباً، وإياباً وفي كل الاتجاهات على هذه العربة المجنونة لنقل الماء. وفي المساء أضع حصاني في مكان آمن، وأعطيه كمية من الحشائش اليابسة، التي تم نقلها إلى هنا على سيارة شحن.

ثم أتناول بعض الطعام، بلا شهية، والذي حضرته لنا ألدي. وأضطجع بعد ذلك في اليورتا، وأخلد للنوم فوراً، وكأنني جثة هامدة لا روح فيها.

أما أنارخاي في واقع الأمر، فهي أرض جميلة مليئة بالشيح البري - وهذا حالها منذ أمد بعيد. وكان من الممكن أن يتنقل الإنسان فيها لساعات طويلة، ويتمتع بجمالها، ولكن لا يوجد لدينا وقت لهذا.

كان كل شيء معقولاً نسبياً، ولكن ثمة شيء لا أفهمه: فلماذا أنا لا أُعجب أباكير، ولماذا يزداد كرهه لي يوماً بعد يوم؟ فلو علمت سر الأمر، لاتخذت قراري، فما الذي ينتظرني هنا.. فأنا كنت جاهزاً للقيام بأي عمل صعب ضمن طاقتي. فلم أقدم إلى هنا ضيفاً. ولم أفكر يوماً، بالناس، الذين سأعمل وأعيش معهم. فالناس هم بشر مثلي في كل مكان...

لقد سافرت إلى هنا طيلة يومين كاملين، وفي صندوق السيارة، التي جئت فيها إلى هنا، أرسلوا هذه العربة ذات الأربع عجلات لنقل الماء، ولم أفكر نهائياً، أن قدري سيكون مرتبطاً بها، وسأعاني بسببها الكثير من المصائب.

فأنا قدمت إلى هنا كمساعد لسائق الجرار، وفكرت أنني سأعمل ربيعاً من الزمن، وسأتعلم قيادة الجرار والعمل عليه كما يجب. هكذا تحدثوا معي في إدارة المنطقة. ومع هذه الأحلام قدمت إلى أنارخاي. وعندما وصلت إلى مكان العمل، كان المساعدان للسائقين على رأس عملهما، وأصبحت أنا مخصصاً لنقل الماء. كان من الضروري أن أمتنع مباشرة عن القيام بهذا العمل، وأعود فوراً إلى البيت. زد على ذلك، أنني لم أعمل في حياتي مع أناس سيئين

ولا يحترمون الآخرين. وحتى أنني لم أكن قد عملت سابقاً في مكان ما. وفقط في يوم السبت من كل أسبوع، كنت أذهب مع أمي لمساعدتها في مصنع السكر. أما أبي فقد استشهد في الجبهة وأنا صغير، حتى أنني لا أذكره، وهكذا قررت أن أبدأ حياتي العملية... وحقاً، كان عليّ هنا أن أعود فوراً، ولكنني خجلت من العودة. لقد كان حول هذا المشروع ضجة إعلامية كبيرة، وفي الاجتماع قيلت الكلمات الزاهية البراقة، حتى إنني خالفت رأي أمي، إذ كانت ضد سفري، وكانت تحلم في أن تراني طبيباً، ولكني عاندتها، وأقنعتها بعد طول جدال - سوف أساعدك يا أمي على شؤون المنزل. وكنت في داخلي أرغب بالسفر بأسرع ما يمكن. وكيف سينظر الناس لي ساخرين، لو عدت على جناح السرعة. ولهذا وافقت أن أعمل على عربة نقل المياه. ولكن المصائب بدأت عندي ليس من العربة فقط.

فخلال الطريق إلى هنا، كنت أقف في صندوق السيارة الشاحنة، وأنظر لكل شيء من حولي: هذه هي أنارخاي، ذات الأساطير القديمة! أما السيارة فكانت تنطلق مسرعة في طريق، بالكاد يراه الإنسان، عبر الحشائش الخضراء، في هذه السهوب، مع بعض الضباب الأزرق، الذي بدا بعيداً، وفاتحاً، ولم تتخلص الأرض من رائحة الثلج الذائب نهائياً، إذ ما زالت تتنفس بقاياه، وعبر النسيم الرطب قد أصبح من الممكن الإحساس برائحة الشيح المرة نسبياً، المشهورة بسهوب أنارخاي. وكانت الناميات الجديدة فوق جذور هذه النباتات اليابسة من العام الماضي، تشق طريقها لحياة جديدة فوق هذه السهوب. أما الرياح، التي كانت تستقبلنا كانت تحمل معها صريراً خاصاً لها في هذا الفضاء الرحب مع نقاء الربيع القادم. كانت السيارة

تنهب الأرض نهباً، مطاردة الأفق، وكلما حاولنا أن نقترب منه، كان يبتعد عنا، بنفس المساحة، التي نقطعها عبر السهوب، والهضاب النقية، وكلما ارتفعنا قليلاً فوق هضبة كانت تتكشف لنا أبعاد جديدة ومناظر أخرى في فضاء أنارخاي الرحب.

خُيل لي، وأنا في هذه السيارة، أنني أسمع صدى الأزمان الغابرة، وكأن الأرض ترتعد وتئن من وقع آلاف حوافر الخيل، التي قطعتها، وترامت لمسامعي أصوات ضجيج موج المحيطات، مع أصوات وحشية وصراخ، وصهيل خيول الرعاة الرُّجَّل، مع قرقعة عرباتهم، ورايات المحاربين ترتفع وتتساقط، وبدت المعارك الطاحنة أمام عيني بكل أحوالها. وكم كان يؤلمني صليل السيوف، وطعن الرماح، والناس يصرخون ويهددون، ويشتمون، وحوافر الخيل تعزف مأساة الصراع البشري. وأنا كنت في معمعان هذه المعركة الشرسة، التي لا ترحم، إلى أن اختفت تدريجياً معالم تلك المعارك. وها هي بيوت الرعاة تنتشر في كل مكان فوق هذه السهوب، وخاصة تلك الخيام البيضاء. وفوق هذه المراعي، ارتفع دخان نار الوقود من المخلفات اليابسة للمواشي. وانتشرت في كل مكان قطعان الأغنام وأسراب الخيول، وانتظمت قوافل الجمال بأجراسها النحاسية الكبيرة، لا أعرف من أين هي قادمة، وإلى أين متجهة...

ودوت صفارات القطارات الطويلة الصاخبة، التي أعادتني إلى الواقع، وهي تنفث الدخان الكثيف فوق الفرغونات المتموجة.. وكان القطار يسير، وكأنه حصان جامح، يسرع في ركضه، وعرفه يتمايل مع الهواء، وذيله مرفوع، أعلى من ظهره. هكذا تراءت لي اللوحة من بعيد. أما القطار أخذ يتقلص أصغر فأصغر، حتى تحول إلى علامة خفيفة قاتمة، ثم اختفى نهائياً عن النظر.

قطعنا السكة الحديدية، التي امتدت بعيداً في السهوب، وتابعنا طريقنا...

☆☆☆

في أول يوم، وصلنا فيه، فضحت نفسي كلياً، فلم أتخلص بعد من تلك التصورات والانفعالات، التي عشتها خلال الطريق. فبالقرب من أرض المنطقة، كان يشمخ على ربوة عالية تمثال لامرأة حجرية قديمة، وهو مصنوع من صخرة رمادية كبيرة من الغرانيت، لم تسو من الخارج كما يجب، وهي قابعة في هذا المكان منذ أمد بعيد، وكأنها عاسٌّ تحرس كل ما يحيط بها، وجذورها عميقة في هذه الأرض، وتحدق بعيداً بنظرة جامدة، فاقدة للحياة. أما عينها اليمنى، فقد كانت قد تهشمت وتشوهت من عوامل تعرية المطر والرياح، وبدت، وكأنها جرن فارغ، بعد أن خرجت العين من مكانها، يخيف كل من ينظر إليه، بنظرة شريرة، وقاسية تشبه حالة الجرن. نظرت طويلاً إلى هذه المرأة، ثم اقتربت من اليورتا[1]، وسألت ساروكين:

- كيف تفكر، أيها الرفيق المهندس الزراعي، من وضع هذا التمثال هنا؟

كان ساروكين يستعد للمغادرة، إلى مكان ما. فأجابني، وهو يعتلي صهوة جواده:

- أعتقد أن قبائل الكلميك هم الذين وضعوه هنا. - وغادر مسرعاً.

كان بإمكاني أن أتوقف عند هذا! ولكني رفضت! وكأن

[1] اليورتا - خيمة يقيمها الرعاة في مناطق رعيهم، أو العمال للقيام بأعمال مؤقتة. - (المترجم).

أحداً ما أمسك بلساني، وسحبه من فمي، حتى أتكلم، فتوجهت إلى سائقي الجرارين، وإلى مساعديهما، اللذين لم أتعرف إليهما كما يجب:

- هذا، ليس صحيحاً كلياً. إن قبائل الكلميك كانت هنا في القرن السابع عشر. أما هذا التمثال فهو عبارة عن شاهدة فوق مقبرة من القرن الثاني عشر. وكما يبدو، أن المغول خلال فتوحاتهم الشهيرة، وهم يتجاوزون المنطقة نحو الغرب، قد أقاموا هذا التمثال على مقبرة لقتلاهم. ونحن القرغيزيون قد جئنا معهم من ضفاف نهر الينيسي، إلى هنا، وتموضعنا في منطقة تيان - شان الجبلية. وقبلنا كانت تعيش هنا قبائل الكيبشاك، وقبلهم عاش هنا أناس من ذوي الشعر الأشقر، والعيون الزرقاء والخضراء الفاتحة.

وكنت أرغب في الكلام أكثر، وأغوص في أعماق التاريخ، ولكن، ثمة شخص يقف إلى جانب الجرار ويرتدي بزة عمل، قاطعني. إنه كان أباكير، إذ قال ساخراً:

- إيه أنت، أيها الصغير! - نظر نحوي بعينين ثاقبتين، من تحت حاجبين عابسين. - أنت عالم كبير، كما يبدو. اذهب إلى اليورتا، واجلب من هناك محقنة الزيت.

لكن، وبدلاً من محقنة الزيت، تبين لأنني جلبت له علبة الشحم.

- إيه يا لك من أكاديمي! - قال ساخراً مني بكلمات أخرجها من بين أسنانه. ونظر نحوي بعينين شريرتين، قابعتين خلف تجعيدات جفنيه الحمراوين - جئت إلى هنا لتقرأ لنا نحن الجهلة، محاضرات، وأنت، ليس بإمكانك أن تفرق بين الفرس والجمل.

ومن هنا أصبح لقبي - "الأكاديمي".

وها أنا، الآن أقترب منه مع عربة نقل الماء، أما هو، فقد أخذ يثرثر ويشتم بلا توقف، ويركض نحوي، وهو يتعثر بالحراثة، قائلاً:

- ماذا حل بك، حتى تزحف هكذا، كالقملة المفروكة؟! فكم من الوقت عليّ أن أنتظرك؟ سأخنقك، أيها الجرو، وأتخلص منك، ونرتاح من أكاديمي أمخط آخر.

التزمت الصمت، واقتربت من الجرار، وماذا كان من الممكن أن أقول له، لأبرر تأخري؟ فإن الجرار كان يقف بلا عمل بسبب تأخري، وهذه حقيقة. ومن الجيد أن زوجته كاليبا، كانت تدافع عني دائماً. فقالت له:

- اهدأ، يكفي صراخاً أرجوك، اهدأ يا أباكير! فالصراخ هنا لا يفيد. انظر إليه، كيف يعاني من الإرهاق، ووجهه قد بدا أصفراً من الشحوب. لقد فقد الشاب صحته، وهو يعاني من التعب. - تناول من يديه المرتجفتين سطل الماء، وصب ما فيه في الردياتير - فهو بدون هذا الصراخ يجتهد قدر إمكانه. ألا ترى كيف أن ثيابه مبللة كلياً، حتى يمكن عصرها كلياً...

- وما يهمني في الأمر هنا! - قال أباكير بحقد. - كان عليه أن يجلس في البيت، ويقرأ كتيباته.

- يكفيك غلياناً، - قالت كاليبا، وهي تهدأ من حنقه، - يا للعجب! كم فيك من الشر! وهذا ليس من طبيعة الرجال يا أباكير.

- إذا كان عليَّ أن أسامح وأتحمل شيئاً، بعد شيء، سأموت بلا ثمن، وعبثاً. فالقيادة تطالبني بتنفيذ الخطة، ولا تطالبك أنت، فمن سيتحمل المسؤولية عني، إذا كان هذا البليد، لا يعمل كما يجب!

لماذا كان يغيظه، أنني تعلمت؟ ولماذا أنا درست، ومن أين حل على رأسي هذا المؤرخ ألدياروف؟

إنني أحاول أن أجتهد في المغاردة من هنا. فالآن ينتظروني في نهاية الأرض، وهناك سائق صادابيك، وهو إنسان جيد، ولطيف، وجاد، فهو يغضب أحياناً، ولكنه لا يرفع صوته.

وهنا سمعت صوت المحرك خلف ظهري، قد اشتغل، وتحرك جرار أباكير من مكانه، وأخذ يعمل. تنفست الصعداء، وانكمشت على نفسي تحت السترة المبللة، وأنا أفكر، لماذا أباكير قد خلق هكذا، بهذه الطبيعة السيئة والشريرة؟ فهو غير كبير في العمر حتى نقول أنه ضجر من الناس، فله من العمر ثلاثون عاماً تقريباً، أما من خلال وجهه، فالإنسان يعطيه أكثر من عمره الحقيقي، وخاصة التجعدات على وجنتيه، ويداه قابضتان كالملقط، ولكنه يعتني بمنظره. أما عيناه فهما شريرتان وسيئتان، ومجرد أن يغضب قليلاً، تجدهما تمتلئان بالدم الأحمر، وعند ذلك لا يبقى لك إلا أن تغرب عن وجهه، فهو يصبح في حالة لا يسأل فيها عن أي شيء. حصلت عندنا قبل فترة مسألة، فالمطر أخذ يتصبب منذ المساء المبكر، واستمر طيلة الليل يتساقط فوق سقف اليورتا بصوت خافت كسول نسبياً، وعلى وتيرة واحدة، وكان الماء يسيل فوق اللباد المشدود، وحتى الصباح لم يتوقف. بقينا في اليورتا بلا عمل اضطرارياً لسوء الطقس، أما المهندس الزراعي فقد سافر - فعنده الكثير من الأعمال، حتى في أيام المطر، فهو كان مسؤولاً عن تربية المواشي أيضاً، ولذلك لم يكن لدى الرجل، أية دقيقة فراغ، فطيلة النهارات فوق سرج حصانه، ويتنقل من مكان إلى مكان، لمتابعة العمل.

عندما هدأ المطر قليلاً، قام المساعد أسيركيب، الأخ الأصغر لصادابيك، وضع السرج على حصان عربتي، وركب من فوقه، واتجه إلى الرعاة. أما ألدي وكاليبا، فقد أخذتا السطل، وذهبتا إلى الينبوع كي تأتيان بالماء، وبقينا نحن الثلاثة في اليورتا - أباكير، وصادابيك وأنا.

جلسنا عابسين مكتئبين، دون أي كلام، وكل منا يهتم بأموره الخاصة. فأباكير كان مضطجعاً قليلاً، يمد رجليه، ويدخن، بينما جلس صادابيك عند الموقد، وأخذ يصلح جزمته، التي تمزقت لقدمها، أما أنا فكنت أجلس في الزاوية، أقرأ كتاباً.

كان الجو في اليورتا رطباً للغاية، ومملاً بلا حدود، أما اللباد، الذي تبلل أخذ يفوح برائحة صوف الغنم الطبيعي. ونادراً ما كانت تنفذ منه قطرات من الماء الأصفر، كالشاي، الراشح من اللباد. وخارج اليورتا، كان المطر يصدر بعض الأصوات عندما يصطدم مع المياه المتجمعة في النقع القريبة، وكأنه غليان الماء فوق موقد قوي.

تثاءب أباكير من الضجر والملل، وتمدد واقفاً، بينما كانت أعصابه تصدر طقطقات مختلفة، وأطبق عينيه، وقذف عقب سيجارته، دون أن ينظر إلى أين قذفه، فوقع على طرف اللبادة. وأخذ الدخان ينبعث منها على الفور، وتفوح رائحة الصوف الرطب. رفع صادابيك عقب السيجارة عن قطعة اللباد المحترقة، وقذفها في الرماد، وقال، وهو يسحب الخيط المشمع من جلد الجزمة:

- عليك أن تكون حذراً، وهل من الصعب عليك، أن تنهض من مكانك، وترمي عقب سيجارتك بعيداً.

- وهل من فاجعة حصلت؟ - قال أباكير بصوت فيه نبرة التهديد، وهو يهز رأسه.

- اللبادة قد احترقت. - أجاب صادابيك.

- هذا شيء تافه، يا لها من ثروة! - ضحك أباكير باستهزاء - ها أنت تخيط جزمتك البالية، فتابع عملك، ولا تهتم بأي شيء آخر!

- المسألة لا ترتبط بالشيء وقيمته، فأنت هنا لا تعيش وحدك، وأنت لست في بيتك الخاص.

- أعرف جيداً، أنني لست في البيت! لو كنت في بيتي لما تحدثت معك نهائياً. أفهمت، أيها الوجه في بنطال جلدي؟، إن الإله قد عاقبني حتى أجلس في هذا المنفى، للأشغال الشاقة في أنارخاي. هذا المكان، الذي يتناسب معك ومع زوجتك، ومن شابهكما من المجانين!

سحب صادابيك الخيط بشدة من جلد الجزمة، فطار المخرز من يده، إلى خلفه، نظر طويلاً إلى أباكير دون أن يزيح حدة نظره عنه، ثم تقدم إلى الأمام مهدداً، وهو يمسك الجزمة بيده بقوة، وفي اليد الأخرى الخيط المشدود كوتر قوي.

- حسناً، وليكن، إنني مجنون، وزوجتي مجنونة، وقد جاءت معي، وتطعمنا هنا جميعاً! - قال ذلك، وهو يتنفس بصعوبة، - وكل المجموعة، التي تعمل في أنارخاي، هم من المحكومين بالأعمال الشاقة، هل أنت أتيت بهم إلى هنا؟ أجبني أيها الحقير! - صرخ صادابيك، ونهض من مكانه، واختطف ساق فردة الجزمة الجاهزة مع حذوتها بيده اليمنى. أما أباكير فتناول مفتاح البراغي، الموضوع جانباً، وأخفى رأسه بين كتفيه، مجهزاً نفسه للضربة الأولى.

ارتعدت خوفاً. لقد كان هذا شيئاً رهيباً. وكان من الممكن أن يقتل أحدهما الآخر.

- لا، لا داعي لهذا، يا أباكير! - نهضت من مكاني، محاولاً

إيقافه. - لا تضربه! لا داعي لهذا، يا صادابيك، أتركه وشأنه!
- أخذت أرجوهما، وأنا مرتبك بينهما. قذفني صادابيك جانباً، وأخذ الاثنان يجولان في اليورتا كالنمور الرقط قبل الوثب، وهما يحدقان ببعضهما بحقد وكراهية، ثم وثبا على بعض. أما مفتاح البراغي فقد طار من يد أباكير والهواء يصفر فيه عند رأس صادابيك، ولكن الأخير قد أزاح رأسه بمحض المصادفة جانباً، وتمسك بالمفتاح بكلتا يديه. أما أباكير فقد كان قوياً، فألقى بخصمه إلى الأرض، وسقط بثقله عليه، وأخذ الاثنان يتعاركان، ويتدحرجان على الأرض والصفعات والضربات تتوالى، وهما يتنفسان بشدة، ويشتمان بكل ما عندهما من شتائم. هرعت إليهما، وقذفت بنفسي فوق المفتاح، الذي أراد أباكير تناوله من جديد، وأخيراً حصلت عليه، وهربت به خارج اليورتا، وأخذت أنادي:

- إيه! أين أنتما يا ألدي! يا كاليبا! تعالا بسرعة! إنهما يتقاتلان، وسيقتل أحدهما الآخر..

وضعت الامرأتان السطل، وهرعتا نحوي. وعندما دخلنا إلى اليورتا، كان صادابيك وأباكير، ما زالا يتعاركان فوق الأرض، حاولنا تفريقهما عن بعض، وقد خدش وجرح كل منهما الآخر حتى أخذت الدماء تسيل من كلاهما. سحبت ألدي زوجها إلى خارج اليورتا، ولكن أباكير تخلص من أيدي زوجته، وهجم ثانية على خصمه، وهو يقول:

- انتظر أيها الكلب الأعرج! سوف ترجوني حتى أغفر لك، يا لك من قاذورة وسخة، سوف تعرف من هو أباكير!

أما ألدي القوية والعنيفة فهجمت عليه، وقالت بصوت عال وخشن في وجهه مباشرة:

- ها هو، حاول أن تمسه! سأسحب عينيك من محجريهما! ولن ترى بهما نفسك بعد الآن! أما صادابيك فأخذ زوجته من يدها بهدوء، وهو يقول لها:

- لا حاجة لهذا يا ألدي، إنه أحقر من أن يُعطى قيمة، أكثر مما يستحق...

في هذا الوقت خرجت، أبحث عن مفتاح البراغي، الذي قذفته بعيداً، حتى لا يقع في يد أحدهما، ويعطب الآخر. فوجدته، ودفنته في الأرض، عند تمثال المرأة الحجرية. جلست بعد هذا على الأرض، وفجأة أجهشت بالبكاء الصامت، الذي كاد يخنقني مع كل شهقة، ومع كل زفره، وكان يهتز جسمي كله مع هذا البكاء المر، فلم يرني أحد، وأنا شخصياً لم أفهم ماذا حل بي. وفقط هذه المرأة الحجرية، كانت واقفة، وكأنها تصغي وتستمع إلى معاناتي، وهي تنظر نحوي بتلك العين السوداء الجوفاء. ومن حولنا، كانت تمتد الأراضي القاتمة الرطبة، هادئة وتعبة. ولم يكن هنا أي صوت أو حركة يزعج هدوءها الأبدي العميق، وكنت أنا الوحيد، الذي كان مستمراً بالتقاط أنفاسه، بعد البكاء المر، وأنا أمسح عيني. وتابعت الجلوس هنا طويلاً، طويلاً جداً حتى عم الظلام...

هكذا، أخذت أعيش في هذه الأراضي الفسيحة، والمليئة بالشيح البري. فأنا أجتهد، وبكل ما لدي من قوة، ولكن، وحتى الوقت الحاضر لم ينجم لدي أي شيء إيجابي، وها هو أباكير يخرج عن طوره، ويسيء لزميله. ولا أعلم، كيف سيتطور الأمر فيما بعد، فإن عقلي لا يستوعب أي شيء، من هذا القبيل، وعلى الرغم من ذلك، من الضروري أن لا يسقط الإنسان بمعنوياته. ويجب أن يبقى صامداً هناك، حيث كان يقف ما دام، بإمكانه أن يقف...

- هيا يا سيركو، تحرك! بسرعة أكثر! فبالنسبة لنا لا يجوز مطلقاً، أن نتكاسل، فالعمل لا ينتظر!..

2

في صباح اليوم التالي، نهضت مبكراً، عند طلوع الفجر، قبل العادة، ولقد قررت في نفسي وأنا أضطجع البارحة في اليورتا: إنني سوف أعمل، ولو تقطعت إلى عدة أقسام، وعلي أن أعمل، وأعمل كما يجب، حتى لا يكون لدى أحدهم سبباً، أو حجة لشتمي، أو توجيه ملاحظة لي. وفي نهاية المطاف، من الضروري برهنة حقي، أنني لست أسوأ من الآخرين بشيء.

قمت في بداية الأمر بنقل الوقود إلى الجرارين، وقمت بصب الوقود في خزانات الآليات كما يجب. ثم ذهبت إلى الينبوع ومعي البرميل فوق العربة، حتى أضع الماء في المبرد قبل بدء العمل. ثم كان علي أن أعود لتناول طعام الفطور، ومن جديد، ودون أن أضيع دقيقة واحدة، أنا أنقل الماء. وهكذا سار العمل كما حسبت.

وفي هذه الأثناء كانت الشمس قد أخذت تتحرك قليلاً خلف الأفق الرمادي الداكن. فهي بقيت قابعة خلف هذا السديم السميك، ولم تشرق، وكأنها كانت خائفة أن تلقي بنظرة واحدة إلى المساحة الواسعة والبعيدة لأراضي أنارخاي. ثم بزغت، وصعدت إلى الأعلى على عادتها، وأخذت تشع بنورها كما يجب. ولم ألحظ في حياتي لوحة جميلة، تشبه لوحة الأرض الفسيحة المحروثة حديثاً تحت أشعة الشمس في الصباح الباكر! وكان بحراً لازورياً قد غطى المنطقة، وهدأ بأمواجه الزرقاء، عدا بعض الأماكن، التي بدت خضراء أو صفراء داكنة.

آه، يا أنارخاي، آه، يا أيتها السهوب الفسيحة! ماذا بك تلتزمين الصمت، وبماذا تفكرين؟ وماذا تخبئين في حناياك عن القرن الحالي، وماذا ينتظرك في المستقبل؟ ليست من مشكلة، فأنا وبكل بساطة، عامل لنقل المياه، فأنا سأكون سيداً على هذه الأرض، وعلى الآليات التابعة لها، فنحن الآن نملك جرارين، وهذا كله مجرد بداية البدايات. ولا أعلم أين قرأت ذات مرة، أن المنقبين قد وجدوا تحت أنارخاي أنهاراً كبيرة جداً. وربما كان هذا مجرد توقع أو احتمال ولكن مهما يكن من أمر، فإنني واثق، أن الناس سيتابعون سقي الأراضي، وسوف تقوم في أنارخاي زراعات حديثة، وستنتشر الحدائق الجميلة، وسوف تتوزع المياه في قنوات باردة نظيفة، وسوف تداعب الرياح المحلية سنابل حقول القمح الذهبية. وستنشأ المدن والقرى الحديثة، وسوف يسمي أحفادنا هذه السهوب، بأراضي أنارخاي الخيرة. وبعد الكثير من السنين، عندما سيأتي إلى هنا شاب مثلي الآن، لن يصيبه ما أصابني الآن حسب ما أعتقد، ولن يقوم طيلة وقته، ونهاراً بعد نهار بنقل الماء على عربة عبر الحقول، ويسمع شتائم ومسبات إنسان بذيء.

وعلى أي حال، فإنني لا أحسده مطلقاً، لأنني أنا أول من قدم إلى هنا!...

أوقفت عربة نقل الماء، فوق هضبة، وأخذت أنظر إلى الفضاء الصباحي. وشعرت في هذه اللحظة أنني أكثر الناس سعادة، وأكثرهم قوة وحتى جمالاً. فلتكوني سعيدة وعظيمة يا بلاد أنارخاي!...

وأخيراً بزغت الشمس من خلف الأفق، كبيرة، وملتهبة.

بدأ اليوم بشكل معقول، والجدير بالذكر أن محركي الجرارين لم يتوقفا - وكنت قد أنجزت نقل الماء بشكل جيد، ولكن، وحتى المساء، ما زال الوقت مبكراً...

وفي رحلة من رحلاتي لنقل الماء وجدت بالقرب من النبع قطيعاً صغيراً من الغنم، الأمهات مع خرافها، وكانت تسوقهم إلى هنا فتاة شابة في مقتبل العمر تعمل في رعي الأغنام. فشرب القطيع الماء من الساقية. ولم تسمح لهم بالاقتراب من النبع، حتى لا تقع إحدى المواشي في عين النبع، ويصعب إخراجها، فتتفق وتفسد المياه. فمن أين أتت هذه الفتاة؟ ربما قدمت من الغيضة القريبة هناك، خلف ذلك التل ذي الرأسين. ففي تلك المناطق تموضع الرعاة، وبدا لي وجه هذه الفتاة وكأنه معروف بالنسبة لي سابقاً. لقد رأيت ذات مرة في مجلة صورة فتاة فيتنامية، وعلى جبينها كانت منثورة بعض خصيلات من شعرها. ولهذا بدا الأمر لي وكأنني قد رأيتها سابقاً في مكان ما. نظر واحدنا إلى الآخر بهدوء. وكان أمر وجودي هنا، في هذه المنطقة أمراً مفاجئاً لها، كما كان وجودها هنا بالنسبة لي أيضاً. ولكنني، وكأن شيئاً لم يحدث، قفزت من فوق العربة، وأخذت بكل جدية أغترف الماء من الينبوع وأصبه في البرميل.

في هذا الوقت، كانت أغنامها قد ارتوت، وأخذت هي تسوقها تدريجياً بعيداً عن الينبوع، وعندما مرت بجانبي، سألتني:

- ما اسم هذا الينبوع؟

تفاجأت بسؤالها، وأخذت أفكر، وأنا أنظر إلى عين النبع المستديرة، وبدت وكأنها تعكرت قليلاً، بعد أن حركتها، وأنا أغترف الماء منها. حقاً، يجب أن يكون لهذا الينبوع اسم ما، وخاصة أنه الوحيد هنا. وخلال لحظات تفكيري، هدأ الماء، وأصبح شفافاً

صائباً، ذا بريق جميل من الأعلى، بينما بدا داكناً في العمق، فأجبتها، بعد أن أوحى لي شكل فوهة الينبوع باسمه، دون أن ألتفت إلى الفتاة:

- عين الجمل!

- نبع عين الجمل؟ - سألت الفتاة ثانية، ونفضت الشعر عن جبينها إلى الخلف، والذي تطاير حتى غطى شيئاً من عينيها، ثم ابتسمت، - هذا جميل! إنه حقاً يشبه عين الجمل. فهو يبدو مفكراً بذكاء، كما تنظر عين الجمل...

أخذنا نتحدث، وبان أن الفتاة هي من منطقتنا، وحتى تعرف مدرسنا لمادة التاريخ ألدياروف. آه، كما كان هذا شيئاً رائعاً بالنسبة لي - أن أسمع اسم مدرسي المحبوب، هنا في هذه السهول، من فتاة مجهولة، التي اعتقدت، أنها قد قدمت إلى هنا بتأثير منه أيضاً. فهي قد أكملت المدرسة في العام الماضي، ولكن ليس في مدرستنا، بل مدرسة أخرى، وهي الآن تعمل هنا مساعدة لراعي.

- لدينا في منطقة كوشار مياه بئرية مالحة، - قالت الفتاة.

- وسمعت أنه توجد مياه ينبوع هنا. لقد أردت أن أرى بأم عيني مياه الينبوع الحقيقية الطبيعية، وأن أشرب منها، وأروي الأغنام والخراف، ودعها تعرف طعم الماء الطبيعي الرائع. وعندما تكبر الخراف وتنسى أمهاتها سأحولها إلى القطيع، وفي الخريف سوف أدرس في الجامعة...

- وأنا أيضاً، سأعود للدراسة بعد فترة، - قلت لها. - ولكنني سوف أدرس في معهد مهني ميكانيكي حيث تم إرسالي إلى هنا، لأعمل مع الجرار، أما هذا، هكذا... أشرت إلى العربة، إنني أساعد مؤقتاً.. ريثما يأتي شخص آخر ليقوم بنقل الماء.

هذا بالطبع، كلام لا معنى له، ولا أعلم لماذا قلت هذا، فأنا نفسي لن أرغب بهذا الكلام. فخجلت لدرجة كبيرة، وغمرت جسمي حرارة قوية، ثم بردت أطرافي بالتدريج.

- إيه، يا أكاديمي، سوف أصفعك على بوزك! - جاء صوت أباكير الكريه من بعيد.

- آه، لقد تأخرت وأنا أثرثر!

- من هذا، الذي يناديك؟ - سألت الفتاة، بدون أن تعرف شيئاً.

- هذا، هكذا، - همست بهدوء، واحمر وجهي. - عليَّ أن أنقل الماء.

ساقت الفتاة خرافها، عبر طريقها، الذي أتت منه. أما أباكير، فقد كان يقف فوق حجرة الجرار، في نهاية الأرض، التي يحرثها، وينادي بأعلى صوته، وهو يهدد بقبضتي يديه.

- ها أنا قادم! انتظر قليلاً! هذا أنا قد أتيت! فلا يجوز أن تصرخ بحضور أناس غرباء! - همست يائساً، وضربت حصاني، حتى أخذ يعدو بسرعة.

أخذت المياه تتطاير من البرميل، وقد تبللت من رأسي حتى قدمي، وليكن هذا! وعسى أن لا يبقى نقطة واحدة في البرميل! لم أعد قادراً على تحمل كل هذه الإهانات! قفز أباكير من فوق حجرة الجرار، وهجم عليَّ كما في المرة الماضية. أوقفت الحصان، وقلت له:

- إذا استمريت في الصراخ، والشتائم، على هذا المنوال، سوف أترك العمل، وأغادر من هنا!

لقد ارتبك من المفاجأة، ثم اصفر، وأخذ يشتمني بأسوأ كلمات. وقال أخيراً:

- بدونك أيها الأكاديمي التافه، كانت أراضي أنارخاي، والآن إذا غادرت، لن تغرق بدونك، دعها تحترق في الجحيم! اغرب عن وجهي نهائياً، حتى لا أراك! يا لك من طويلب صعلوك، يا لك من ولد عاري الخلف. إنك تهددني أيضاً!

قفزت عن العربة، وقذفت بالسوط خلف الجرار، وخطوت مغادراً.

- قف يا كميل! لا يجوز هكذا! إلى أين، توقف! - أخذت كاليبا تناديني. ولكن نداءاتها لم تستوقفني، بل زادت من سرعتي، وتصميمي على المغادرة.

- لا تستوقفيه، دعيه يختفي! - جاء صوت أباكير خشناً.

- لا حاجة لنا به!

- إنك وحش، لا رحمة في قلبك، ولست بإنسان، ماذا فعلت! - قالت كاليبا موبخة إياه.

بقي صوته يجلجل في أذني مسافة طويلة، وكيف كانت أصواتهما ترتفع، وترتفع، وهما يتشاتمان. لم أخفف من سرعتي نهائياً، وابتعدت أكثر، وأكثر. وكان الأمر بالنسبة لي سيان، إلى أين أسير، ومن حولي، لم يكن أحد، أسأله، إلى أين عليَّ أن أتجه. كانت الطرق مفتوحة أمامي، على كل الجهات، وهناك، حيث كان تمثال المرأة الحجرية، توقفت ناظراً إليها، حيث امتلأت روحي بالغضب، بينما ودعتني هذه الصخرة العجوز بنظرة سوداء فارغة، وبقيت واقفة في مكانها، ثقيلة، شامخة فوق الأرض، كما وقفت عدة قرون.

سرت طويلاً، دون أن أفكر بشيء، وكانت عندي رغبة

واحدة، وهي أن أغادر، وأغادر بعيداً من هنا، و بأسرع ما يمكن. وأدع هذا الصقع اللعين أنارخاي، أن يتمتع برؤية خلفية رأسي وأنا أغادر.

انفردت الأراضي في أنارخاي، خالية من أي شيء مشوق ومحبب، فجميع الهضاب، والمنحدرات والوهاد - وكل شيء من حولي، كان متشابهاً لدرجة الغثيان، فمن خلق هذه الأماكن الميتة، والذابلة، والمتشابهة كلياً؟ ولماذا، كان عليَّ، وأنا مهان ومذل أن أغفر لهذه الأماكن، وهذه السهوب الفسيحة، المليئة بالشيح البري المر؟ وحيثما نظرت من حولك، تجد الصحراء الميتة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، ماذا يلزم الإنسان هنا؟ وهل الأماكن الجميلة لا تكفيه في الأرض؟ وهكذا اتضح لي، أن أحلام الصباح قد ظهرت على حقيقتها، وكانت مضحكة ومخادعة.

"هذه هي سهول الشيح السعيدة، وهذه هي جهات أنارخاي!" - كنت أضحك على نفسي، وأنا أشعر بكل كياني أبعاد ضعفي الحقيقية، ومدى تشردي، وإهانتي.

من فوقي كانت سماء عالية، عالية لا نهاية لها، لم أر مثلها في حياتي. ومن حولي امتدت أراض واسعة، وواسعة جداً، وبدوت لنفسي صغيراً، ووحيداً، متسكعاً في هذه الأصقاع كإنسان صغير، في سترة عتيقة، وجزمة جلدية بالية، وقبعة قديمة قد فقدت لونها الطبيعي. وهكذا، "كان لا بد لي أن ألتقي بطريق من طرق السكك الحديدية، - أخذت أفكر، - وسأسير على عارضات الطريق، وهناك، وعند أي تقاطع، أو محطة، سأتعلق بعربة أو فرغونة شحن، وأتجه إلى صقع فيه بشر"...

وعندما سمعت خلفي، وقع حوافر حصان، ذو ضجيج خاص وشخير بعد الركض السريع، فلم أنظر إلى خلفي، وأدركت أن هذا هو ساروكين. ولم يكن أحداً غيره يهتم بي. والآن سيبدأ بلومي على مغادرتي، وسيطلب مني بإلحاح أن أعود. ولكن - ليذهب إلى الشياطين! لن أعود، ولن أفكر حتى بهذا.

- توقف! - ناداني ساروكين بصوت هادئ.

توقفت. اقترب مني على حصانه المبلل بالعرق، وكأنه خرج من بركة ماء. نظر نحوي بعينين زرقاوين هادئتين من تحت حاجبين شقراوين، وهو يلتزم الصمت كلياً، ثم مد يده إلى الحقيبة، التي كان يصطحبها معه دائماً إلى السهل، وأخرج بطاقة حمراء كانت بطاقة مهمتي للعمل الكومسومولي[1]، التي حملتها بكل شرف وافتخار، وقدمتها له في يوم وصولي إلى مكان العمل.

- خذ، هذه هي مهمتك، ولا يجوز أن تتركها، - مد ساروكين لي البطاقة بهدوء.

لم أجد في نظرات ساروكين، أي شيء يشير إلى إدانتي، أو الاستخفاف بي، ولم يوجه لي أي نقد، ولم يشفق على حالي. لقد كانت نظرته جادة، وهو إنسان مخضرم في العمل، وقد تعود أن يلتقي بالكثير من المصادفات والصعوبات. ثم فرك بكفه الخشن وجهه التعب، الذي نما عليه الشعر الأشقر بكثافة.

- إذا كنت ترغب بالتوجه إلى المحطة، عليك أن تتجه نحو

---

[1] الكومسومول اتحاد الشبيبة الشيوعي، والذي كان يقوم آنذاك بالمشاريع الإنمائية كاستصلاح الأراضي البكر، وشق الطرقات، وبناء المدارس والمصانع، وذلك دعماً للنظام السوفيتي بالاعتماد على حماسة الشباب. - /المترجم/.

اليمين، نحو تلك الوهدة السفلى. - هكذا نصحني، مبيناً الطريق حتى لا أتوه، ثم استدار بحصانه، وعاد بهدوء.

نظرت مستغرباً في أثره. فلماذا، لم يوجه لي أية إدانة، ولماذا، لم يحاول إقناعي بالعودة؟ ولماذا يجلس تعباً على سرج حصانه، منكس الرأس؟ فزوجته وأولاده في مكان بعيد من هنا. وهو يقبع في هذه الأماكن البعيدة سنوات وحيداً، ويتجول في هذه السهول. فماذا وراء هذا الإنسان، وما الذي يبقيه هنا في أنارخاي الصحراوية، فأنا لا أفهم لماذا، ولكنني سرت مباشرة خلفه بهدوء.

في المساء اجتمعنا في اليورتا، كان الجميع يلتزمون الصمت، عم الهدوء، وفقط كانت شعلة الحطب في الوسط، تصدر فرقعات للحطب المشتعل. وكنت أنا السبب في كل هذا. فالحديث لم يبدأ بعد، ولكن، وحسب وضع واحتدام وجه ساروكين الغاضب، كان يستعد للبدء في الكلام.

- حسناً، كيف لنا أن نستمر بالعمل؟ - قال ساروكين أخيراً، دون أن يتوجه بالكلام لأحد محدد.

- ماذا في الأمر، هل ننتظر طوفاناً سيجتاح أنارخاي؟ - قال أباكير ساخراً.

خلال هذا الحديث، نهض صادابيك بصمت، وخرج من اليورتا، وبعد تلك المشاجرة لم يتحدث مع أباكير، وهو لا يريد أن يتحدث معه، ولا أن يتدخل في الحديث. وأخوه، المساعد أسيركيب، نهض من مكانه مستعداً للخروج، ولكنه فكر ملياً، وبقي في مكانه.

أما أسيركيب ، فلم يكن في حالة وفاق مع أباكير أيضاً، فذات مرة، ودون أن يسألني، أخذ أسيركيب عربة نقل الماء،

وتركني ليوم كامل لأقوم بعمله فوق المحراث مع الجرار، الذي يقوده صادابيك. ولكنه، عندما تأخر في نقل الماء، أخذ أباكير يسبه ويشتمه. ولكن أسيركيب لم يسمح لأباكير أن ينال من كرامته، ويوجه له إهانة، فهو يجيد المقاتلة جيداً، وهو يكبرني بثلاث سنوات تقريباً.

لم يجب أحد على ما قاله أباكير.

- ماذا بكم تغوصون بالتفكير؟ - أضاف أباكير. - فمن خرق العمل، دعه يتكلم ويجيب.

- ليس الكلام هنا عن المخطئ، ومن يعمل يخطئ! - أجاب ساروكين، دون أن ينظر نحوي. - فهنا يجري الكلام عن مصير إنسان شاب، وكيف له أن يكون الآن.

- آه - يا له من مصير! - ضحك أباكير، ساخراً. - مصير أمثال هؤلاء الأكاديميين معروف منذ زمن بعيد. هؤلاء أناس فاشلون، لا يصلحون لأي شيء! - ولاح بيده، وكأنه لا جدوى منه، ومن أمثاله. - فأنت نفسك قل، ما تفكر به، يا ساروكين، فلأي شيء يصلحون؟ ونحن هنا حملنا عبء العمل كله على كاهلنا من أجل الحصول على القمح. كانوا هم يدرسون عشر سنوات حتى ينهون المدرسة، وبعضهم احتاج لأكثر من عشر سنوات، وكنا نطعمهم، ونلبسهم، من الحذاء حتى القبعة، وماذا كانت النتيجة، وماذا حققوا من دراستهم؟ فلا يعرفون السيارات، ولا يعرفون تجهيز الحصان بعدته، وبالكاد يقدرون على شد حبل سمط الدابة، ولا يشدونه كما يجب.. وهكذا، لماذا عليَّ أن أنتفخ قهراً من أجله؟ وما ضرورتي هنا بعلومه! يا للسخف! إنه يعرف قضايا العصور الحجرية! أما بالنسبة للعمل الموكل له،

لا يقوم به. وطالما، هذا هو واقع الأمر - فدعه يغادر، بلا رجعة، حتى لا يسيء إلى عمل الآخرين، ويعرقله! وأنت، يا ساروكين، لا تضع الخطأ عليَّ. فأنا أعمل بدون بديل، أو مساعد، ولا أسمح لأحد أن يتقدم عليَّ في العمل. وإذا كنت، لا أصلح للعمل هنا، - فغداً لن تجد لي أي أثر هنا. أما ما قلته، سوف أقوله دائماً؛ ولو كان الأمر بيدي، لتصرفت بشكل آخر مع هؤلاء الأكاديميين...

- يكفي! - قاطعه ساروكين، دون أن ينظر له. - نحن نعرف جوهر ما تتحدث عنه بدونك، والكلام هنا عن هذا. فقل لي يا كميل، بماذا تفكر أنت؟

لم أجب على الفور، فعندما سمعت كلام أباكير، خطرت على بالي فكرة، أنه يوجد شيء من الحقيقة في كلامه. ولكن كيف أفصح هو عما في داخله، وكم هو كبير ذلك الحقد الكامن في داخله، والعداء للآخرين! ولماذا كل هذا؟ فهل أنا بدون يدين، أو أنني غبي كلياً، ولن يكون بإمكاني أن أتعلم ذلك، الذي يعرفه أباكير؟ أو أن معلوماتي وثقافتي لا تسمحان لي بذلك؟ فهذا الذي لا أفهمه مطلقاً. ورغم كل ذلك، لقد حاولت أن أجيب ساروكين، وبكل هدوء:

- لقد قدمت إلى هنا، حتى أقوم بعمل معاون سائق جرار. وهذا بالنسبة لي شيء مهم، أما بخصوص الأحصنة بكل عدتها، فقد أتقنت العمل كلياً. وهذا ما يعرفه الجميع، وحتماً أباكير نفسه يعلم ذلك. ولكنني لن أعمل في نقل الماء، ومن موقف مبدئي لن أعمل بهذا العمل.

- ولكن ليس لدينا عمل آخر. - قال ساروكين.

- هذا يعني، أنه عليّ أن أغادر. - قلت مكملاً كلامي.

رفعت كاليبا عينيها نحوي، وتنفست بحزن.

- كان بإمكاني أن أترك لك مكاني يا كميل. وكان بإمكاني أن أجلس على عربة نقل الماء، ولكنك لن ترضى بذلك.

لقد كان لهذا الكلام وقع خاص، وشيء مفاجئ للجميع. وهل هي قالت هذا الكلام، لأنها ذات طبيعة خيرة، أو لأنها كانت تعاني دائماً من حرج كبير، نتيجة تصرفات أباكير. وكانت تخجل جداً عندما يبدأ بالثرثرة، وكيل الشتائم بصوت عال، وكانت تجتهد دائماً، أن تخفف من وقع أخطائه مع الناس بشكل صارم. - فهل قالت ذلك لهذا السبب، أو لغيره؟ هذا ما لا أعلمه، ولكنها قالت هذا، وأنا أجبت على الفور، ومن دون تفكير:

- سأذهب! وأرضى بذلك.

- عم الهدوء في اليورتا، ولم يبق إلا الموقد يصدر فرقعات خفيفة للأخشاب المحترقة. وهنا نظر كل واحد منا للآخر، دون أن نفهم ما في الأمر. ربما، كان الناس ينتظرون مني، أن أفكر وأرفض؟ وبهذا، قدمت نفسي ضحية في مخالب أباكير، الذي يكرهني كرهاً كبيراً، ولم يتمن لي أي شيء فيه قسط من الخير. ولكنني تابعت الصمت. وهكذا، تم القول، وسيكون الفعل، بينما نظر ساروكين نحوي مرة أخرى، نظرة فاحصة، وسأل باختصار:

- هذا أكيد؟

- نعم. - أجبته بكل ثقة.

- بالنسبة لي، الأمر سيان! - قال أباكير، وبصق في شعلة الموقد. - ولكنني أحذر: إذا لم يقم بالعمل كما يجب، فإنني سأصفعه على رقبته! - وهنا لمعت عيناه ببرودة، في الضوء الخافت، مع شيء من السخرية والتهديد.

- وماذا تقصد بقولك، إذا لم ينفذ العمل كما يجب؟ وأخذت من الآن تهدد وترعد؟

لم يصبر أسيركيب، وقال بعد أن التزم الصمت طيلة الوقت:

- سيقوم بالعمل كما يجب، يا لها من عبقرية! فهو قد عمل سابقاً خلف جرارنا مساعداً، وكان كل شيء على ما يرام.

- لا أحد يسألك، ولا تتدخل في أعمال غيرك، نحن سنرى وأنا أعمل على الجرار، وأنا أجيب عن العمل والنتائج...

- يكفي! - قاطع ساروكين كلام أباكير بغير رضاء، واتجه نحوي قائلاً: - غداً في الصباح انهض إلى العمل، - ثم قال وهو يهم بالخروج من اليورتا: - حان الآن وقت الاستراحة...

لم تغمض لي عين تقريباً، خلال هذه الليلة، فكيف سيكون الأمر، وهل سيهدأ أباكير أخيراً؟ فأنا حتى الوقت الحاضر، لم أصطدم معه إلا نادراً، ولم أره، إلا نادراً، ومنذ يوم الغد سأكون تابعاً له في النهار والليل. أما أعمال مساعد السائق فلم تخفني جداً، رغم أنها تتطلب صبراً وتحملاً. وبالطبع من الضروري أن يكون المساعد منتبهاً، حتى يرفع، ويخفض سكة المحراث في اللحظة اللازمة، حتى لا يؤخر حركة الجرار. وبالإضافة إلى هذا، عليَّ أن أساعد السائق في كل شيء. بما في ذلك الاعتناء بالجرار، والإصلاح، والصيانة، وسأقع في الفخ لو ناولت أباكير مفتاح براغي غير الذي طلبه، أو برغي غير اللازم، أو عزقة لا تتناسب مع البرغي، أو غير ذلك مما يتطلب أمر العمل...

ولم تخلد ألدي للنوم نهائياً، مثلي، لقد اقتربت مني في الظلمة، وجلست إلى جانبي، وأخذت تمسح على رأسي، ثم قالت محذرة:

- لو فكرت جيداً، يا كميل، فأنت، وهو لا تتفقان. أنت شاب طيب، ولا تسيء لأحد. أما هو فيا له من شرير، سيأكلك بلا ملح، وحتى لو قمت بعملك على خير وجه...

- أنا لست بجبان، ولا أرضى أن أقف على رجل واحدة أمامه، وأحزر ما في قلبه. وماذا تعنين بقولك، أنه سيأكلني، فأنا لن أعمل هنا حتى أتعود على مزاجه، وأنفذ رغباته.

- كن حذراً، فأنت ذكي وشجاع كما عهدتك، - قالت ألدي بهدوء، ثم تنهدت بألم، وذهبت إلى فراشها.

3

بدأت المعركة، بيني وبين أباكير منذ اليوم الأول. ففي الصباح، عندما بدأنا العمل، قال جملة واحدة:

- إذا غفلت، أو غفوت، ستقع تحت سكة المحراث، - وأنا غير مسؤول عن هذا!...

ولكنني كنت متوتر الأعصاب لدرجة أنه لم ولن يخطر النوم لي على بال. وكنت جاهزاً، أن أعمل بدقة، ودون أية مواربة. لو فكرت، فكيف لي أن أفسر كلامه، سأقع تحت السكة، كان من الأفضل لي، أن أرفض العمل معه فوراً.

حقاً إن رجليَّ كانتا مثبتتان بقوة على جسر الحامل للسكك الفولاذية، التي كانت تشق الأرض مباشرة، واحدة خلف الأخرى. تحرث، وتقلب تراب هذه الأراضي العميقة في هذه المنطقة، وهي تقتلع الشيح البري، وتمحو آثاره من المنطقة بعد اقتلاع جذوره. أخذ الجرار يسير، بلا توقف بكامل طاقته، وهو يضج بمحركه القوي،

ويصوت بكل ما لديه من أجزاء وسلاسل وهو يمخر الأرض بقوة، مع صرير الجنازير.

لم يلتفت أباكير إلى الخلف، ولا مرة، ولم يهتم بوجودي مطلقاً، وكنت أشاهد خلفية رأسه العنيدة، الشرسة، وهذا كان يوحي لي، أنه سوف يبقى على هذه الحالة، حتى يثبت واحدة من اثنتين: إما أن أرفض العمل وأغادر، أو يتأكد من أنني سوف أصمد حتى الأخير. ولهذا، كان يكابر على نفسه، وعلى الجرار، دون توقف، قاصداً من ذلك إتعابي، وإرغامي على التراجع، والوقوف أمامه موقف الضعيف، الذي لا يتحمل العمل. وبالطبع كان أباكير يعرف أكثر من أي إنسان آخر، كم هو من الصعب أن يجلس الإنسان على جسر من الحديد الصلب في مقعد ضيق، وبدون أية عوازل مخففة للصدمات، فضلاً عن تعرضه للغبار المتصاعد من فعل السكك العاملة في الأرض الجافة، وكذلك الزيت المحروق الصاعد من المحرك. ولكن، وعلى الرغم من جميع تلك الصعوبات، لم أفكر مطلقاً برفع يديَّ مستسلماً لإرادته. ولقد توترت أعصابي حتى النهاية وكذلك شخصت عيناي، وغاب السمع، وأخذت يداي ترتجفان وهما متمسكتان بدفة السكة. هذا كان وصفاً لطبيعة عملي خلال هذه الفترة، والتي لم أنطق خلالها بكلمة واحدة. وكنت ألتزم الصمت، عندما كان يستخدم عناده، ويوجه الجرار في الأماكن الحجرية الوعرة، حيث كانت السكك تصدر أصواتاً ناتجة عن اصطدامها بالحجارة، خارجة عن مسارها في الأثلام، وحيث كان سلاح السكة يقدح ناراً، وتصعد شرارة، بعد أخرى، وينجم عن ذلك رائحة حديد محروق. أما أنا فكنت أتلوى من الصدمات، التي تأخذني في كافة

الاتجاهات، وتقذفني بقوة إلى مسند المقعد. وعند المساء، عندما أوقف أباكير الجرار، شعرت بتعب لم أعهده سابقاً، ولا مرة في حياتي. وكان هذا التعب، الذي من غير الممكن أن يتحمله جسم الإنسان، فالعرق المتصبب، والأنف، والأذنان، والعينان، جميعها كانت مليئة بالغبار، والرمال الناعمة. وأردت أمراً واحداً بعد هذا التعب كله، وهو أن أستلقي على الأرض، وأغفو إلى الأبد، ولكنني لم أتحرك من مكاني، وانتظرت أوامر أباكير.

- ارفع السكة! - صرخ أباكير، ماداً رأسه من نافذة الحجرة، ثم أخرج الجرار من سهل الفلاحة، وأوقف المحرك عن العمل. اقترب وهو ينحني نحو المحراث، ويتلمس السلاح الحاد في نهاية السكك، وثم قال:

- من الضروري تبديلها، لقد تبلدت رؤوسها - وحتى الصباح يجب أن يتم ذلك! - قال هو بصرامة.

- حسناً، - قلت مجيباً. - اترك لي قطع الغيار، وافصل السكك عن الجرار.

نفذ أباكير طلبي، وذهب إلى منطقة الحراثة. لقد نظرت في أثره، وهنا أدركت سر مشاعري. إنني لست غاضباً فقط من أباكير، بل أحسده، فها هو يذهب الآن إلى زوجته ليخلد إلى النوم، بغض النظر عن أنه لم يتعب كلياً. ولقد عذب روحي، حتى النهاية، ولكنه هو أيضاً، لم يمنح نفسه دقيقة استراحة. حقاً إن هذا اللئيم يعمل بكل جدية!

تنفست الصعداء قليلاً. وأخذت أجمع بعض الحطب، والقشور، ووضعتها إلى جانب المحراث. كان من الضروري أن أشعل شعلة، حتى

أتمكن من تبديل الأسلحة في رؤوس السكك. وبعد أن جمعت كمية من الحطب، والأعشاب اليابسة، ذهبت لتناول طعام العشاء.

أما قريبتي روحياً، ألدي الخيرة! فقد نظرت إليَّ بحزن وكآبة. تناولت طعامي بسرعة، وصمت، كما أن ألدي قدمت لي بعض الشواء "بيش بارماك"[1]، الذي حفظته لي بشكل خاص. ولكن لم يكن لديّ الكثير من الوقت للجلوس، فطلبت منها مصباحاً، كنا نستخدمه في الحالات الطارئة.

- لماذا يلزمك؟ - سألتني، وهي تعطيني المصباح.

- من الضروري أن أبدل رؤوس السكك في المحراث.

- عما تتكلم، وكيف من الممكن هذا الآن! - أخذت تصرخ ألدي، وهي تتجه إلى أباكير. - لا، لن أسمح لك أن تستعبد الشاب وتهينه!

- وبماذا يهمني هذا الأمر، فلا تسمحي، وسنرى! - هدد أباكير، وهو يجهز نفسه للنوم.

- لا تتدخلي! - قال صادابيك لزوجته. فكميل يملك رأساً بين كتفيه.

- لا بأس، سوف نساعدك، يا كميل. فلنذهب يا أسيركيب! - نهضت كاليبا، مستعدة للذهاب معي.

- لا، غير ضروري، - قلت لها ولزوجها. - لا تقلقا، فأنا سأقوم بهذا العمل وحدي.

---

[1] "بيش بارماك" - هو شواء محضر من لحم الخيل. وما زالت شعوب آسيا الوسطى (كازخستان، أوزبكستان، قرغيزستان، تركمانستان، طاجكستان وغيرها، تأكل لحوم الخيول وخاصة الفتية منها في الأعياد والمناسبات، وحتى في الطعام المنزلي، وخاصة تحضير شواء "بيش بارماك" بع نقعه بخل التفاح، أو برائب اللبن - (المترجم).

ومع هذه الكلمات، خرجت من اليورتا، والمصباح ينير طريقي. كانت تعم الظلمة بلا نهاية. وعرجت لدقائق إلى النبع، وشربت منه، إذ كان مستقراً، وبالكاد، كان يهمس بخرير خفيف عند حنجرته، والمياه فيه كانت باردة ورائعة، وهو يلمع قليلاً في الوهدة المظلمة. حقاً إنه يشبه عين الجمل. وهنا تذكرت الفتاة مساعدة الراعي. حتى لم أتمكن آنذاك، أن أعرف ما اسمها. فأين هي الآن، هذه الفتاة الرائعة، ذات الشعر المنثور على جبينها؟

وصلت إلى المحراث، وبدأت العمل على الفور. رفعت السكة، قدر الإمكان، الذي سمح لي وضع تصميمها. أشعلت الحطب، وكان المصباح ضرورياً، وأفادني بشكل ملحوظ. حللت العزقات، ووضعت عليها القلاويظ، ثم جمعتها في قبعتي، حتى لا يضيع منها شيء. وهكذا أمضيت الليلة بالعمل تحت المحراث جالساً القرفصاء، أو راكعاً على ركبتيّ، أو مستلقياً على ظهري، أشد البراغي بعد أن قمت بحلها، وكان أمراً صعباً للغاية، والأصعب هو الوصول إليها، حيث كانت موضوعة في أماكن غير مريحة للتعامل معها. أما بالنسبة للشعلة فقد خمدت، خلال ساعات الليل، ولم أعد أعرف، كم أصبح الوقت. زحفت من تحت المحراث، وبقيت مضطجعاً على الأرض، حيث أخذت أنفخ ما تبقى من الشعلة. ولكنني لم أهدأ، حتى بدلت كل رؤوس السكك. ثم مشيت. سرت في الضباب، حتى وصلت إلى الجرار، ونمت في حجرة السائق، بينما كانت يداي تئنان، وتحترقان خلال نومي، بالإضافة لآلام الجروح.

في الصباح الباكر أيقظتني كاليبا، إذ جاءت مع عربة نقل الماء، ونادتني قائلة:

- لقد ملأت الردياتير بالماء. تعال واغسل وجهك، يا كميل، سأسكب لك الماء.

لم تسألني عن أي شيء، وكنت شاكراً لها على هذا. وليس مريحاً للإنسان أن يكون محط شفقة الآخرين، مما يؤكد ضعفه. وبعد أن اغتسلت، حملت لي من الكيس صرة فيها طعام، وقنينة شراب. وكم كان طيباً أن أشرب الكفاس[1] الحامض. هذا بالطبع من أيدي الفاضلة ألدي، التي كانت تعتني بي جد اعتناء.

جاء أباكير، من دون أن يقول أي شيء، فأنا لم أترك له سبباً، حتى يتمسك به، أو يحتج عليه. قرب الجرار من المحراث، فقمت بتعليقه على حلقة الحامل، وانطلقنا من جديد في الأرض.

في هذا اليوم، جلست في مكاني بثقة، حيث أصبحت أكثر تأكيداً على صحة موقفي، حيث نجحت في التجربة الأولى الصعبة، وسوف أصمد حتى الأخير!

لم يكن إلى جانبي من طيف بني البشر إلا ذلك الرأس الجامد، العنيد، الذي كنت ألاحظه من نافذة حجرة الجرار، برقبته الرفيعة. وهكذا استمر بالعمل كما في يوم الأمس، دون توقف، وبأقصى سرعة ممكنة، وسلاسل، ومفاصل الجرار تئن وتصوت، وتضج كورشة عمل حدادة، مع ضجيج المحرك، بينما كنت أتمسك بدفة توجيه المحراث.

في منتصف يوم العمل، أطفأ أباكير محرك الجرار، وقال:

- انزل، استراحة.

---

[1] الكفاس - منقوع الخبز الأسود المصنوع من الجودار. كما يصنع من حبوب القمح المشوية، الفريكة وغيرها، وعندما يتخمر لعدة أيام، يأخذ طعماً حامضاً، ثم يبرد، ويشربه الروس والشعوب في كافة مناطق الاتحاد السوفيتي السابق، كشراب منعش، ومقو. - (المترجم).

جلسنا صامتين على الأرض، في ظل الجرار. دخن أباكير سيجارته، وهو يلوك لفافة كرتونة السيجارة، ثم خلع بزة العمل، والقميص، واستلقى على ثيابه يأخذ حماماً شمسياً. كان ظهره واسعاً، وبدت عضلات جسمه منتفخة، لامعة. وأنا أيضاً، أردت أن آخذ قسطاً من الراحة، خلعت قميصي، وأخذت أفرشه، كي أستلقي عليه، ولكن أباكير رفع وجهه المتجهم فجأة، وقال آمراً، وهو على ثقة، أنني سوف أنفذ فوراً ما يطلبه، ثم أعاد رأسه إلى فوق يده:

- تعال ودلك لي ظهري!

التزمت الصمت.

- ألم تسمع؟ - قال مهدداً، وهو يحرك كتفيه بعصبية، ودون أن يرفع رأسه.

- لن أفعل! - أجبته بصرامة.

- وأنا أقول لك، ستفعل! - رفع جسمه عن الأرض، وامتد نحوي، مستنداً على يديه. - وهل تعتقد، أنني سأنتظرك طويلاً؟

ابتعدت عنه قليلاً، وقلت له:

- أنت دائماً تدق على صدرك وتتفاخر: أنا عامل! وأنا أطعم الجميع بتعبي... فأنت عامل لأنك تعمل فقط، أما من حيث نفسيتك، فأنت بعيد عن شخصية العامل. أنت من حيث سماتك إقطاعي جشع، ومتوحش.

- كنت من كنت! من أنت حتى تتدخل في تقيمي! - وفجأة نقرني بإصبعه على أنفي.

نهضت من مكاني، وهجمت عليه، أضربه بكلتا يديَّ. أما أباكير، فإنه كان ينتظر هذه اللحظة. فصب كل كرهه وحقده،

اللذين تجمعا لديه كل هذه الفترة في ضربة واحدة، وجهها لي، فتدحرجت على الأرض، ولم أعد أقدر على الوقوف، إلا بعد فترة من الزمن، حيث ترنحت في مكاني، ونهضت من جديد على ركبتي، وكأنني فاقد الوعي. من شدة غضبي، هجمت عليه ثانية، ولكنه كان يوجه لي الضربات، ومع كل ضربة، كنت بالكاد أبقى واقفاً على رجلي.

- سأريك الآن، بماذا تفوح قبضة يدي! وسأريك جوهر روحي!

- قال أباكير وهو يوجه ضربات حديدية لي على الأماكن المؤلمة.

ولكنني كنت أصمد أحياناً، وإذا وقعت كنت أنهض، وأعود لمهاجمته مرة ثانية، واضربه على وجهه، وعلى بوزه الوحشي. أما هو فكان يوجه لي ضربات مسددة إلى بطني وأضلاعي وصدري. وها أنا أعود للوقوف مرة أخرى، واتجه نحوه بهدوء، ولكنه، صرخ كالجزار ووجه لي ضربة بيده اليمنى، على طول ذراعه، وصوبها إلى رقبتي مباشرة، فطرت جانباً، وارتميت على الأرض، وأنا أعض على شفتي، حتى لا يصدر أي تأوه، أو أنين يدل على ضعفي.

- أنت تستريح، أيها الأكاديمي! تنفس جيداً بماذا تفوح الأرض!

- قال أباكير، وهو يتنفس بشدة، ويبصق الدم من فمه، ومن شفتيه المدميتين. - فالعراك، ليست محاضرة تقرأ عليك عن العصور الحجرية.

ذهب أباكير إلى ثيابه، التي كانت قد اتسخت بقدمينا، ونحن نتعارك، فرفعها عن الأرض، وأخذ ينفض الغبار عنها، ثم أخذ يرتديها، وهو يتصرف، كأنه قام بواجب كان مفروضاً عليه. وهو لم يشك نهائياً، في أنه حقق نجاحاً في معركته معي. ولكنني كنت أنا

المنتصر بغض النظر أنني كنت مستلقياً على الأرض، وأصبح من المؤكد لي أنه من الممكن أن يقاتل الإنسان بكلتا قبضتيه من أجل الحقيقة، ولقد أدركت، أنه من الممكن، بل من الضروري أن يضرب الإنسان من يضربه، وكان هذا بالنسبة لي نصراً حقيقياً...

وفي الوقت، الذي كان يرتدي فيه أباكير بزة العمل، نهضت من مكاني، وارتديت ثيابي بسرعة، وشغلت مكاني فوق المحراث.

شغل أباكير محرك الجرار، وانطلق، يحرث الأرض، كما قبل الاستراحة، وجلس يلوح برأسه المكور، ورقبته الرفيعة. أما أنا فتابعت عملي كمساعد للسائق، أمسك بدفة المحراث، وأحركها بكل براعة.

4

طرأت في العمل بعض التغيرات، إذ جلبوا لنا على سيارتي شحن عربة يجرها حصانان، بالإضافة إلى الأحصنة لنقل الحبوب الخاصة بالزراعة، وجاء رجل آخر لتشغيل العربة. وأصبح موضوع نقل الماء أسهل من ذي قبل، وتحول جرار صادابيك مع أسيركيب للزراعة، وأنا وأباكير تابعنا عملنا بالفلاحة.

وثمة خبر مهم وصل إلينا.

فقبل عدة أيام، عندما كنا متجهين إلى الحقل على العربة، بعد الغداء، رأيت عند النبع تلك الفتاة، مساعدة الراعي. قفزت إلى الأرض فوراً، وكان بإمكان سائق العربة أن يتوقف قليلاً حتى أنزل، ولكن أباكير، لم يسمح له بذلك.

- أسرع، لا تتوقف. - قال أباكير غاضباً. فركضت إلى الفتاة،

وهي بدورها سارت نحوي للقائي، تاركة أغنامها، ولكنني لم أصل إليها، إذ كان عليّ أن ألحق العربة، حتى أكون في مكاني عند بداية العمل. توقفت وصرخت بأعلى صوتي:

- مرحباً!

- مرحباً! - أجابت هي، وتوقفت.

سعدت جداً، أنني رأيتها، بعد أن فقدت الأمل بلقياها، ولكن لم أعرف ماذا أقول.

- لماذا لم تعد تأتي مع عربة نقل الماء، أين تعمل الآن؟

- أعمل الآن على الجرار! - رفعت صوتي مع شيء من الاعتزاز - أجبتها، وأضفت: نحن الآن هناك عند تلك الأراضي! سامحيني، يجب أن ألحق العربة.

- اركض، اركض! - لاحت بيدها مودعة.

انطلقت حتى ألحق العربة. نظرت خلفي، فوجدت الفتاة، ما زالت واقفة في مكانها، وتنظر لي. توقفت العربة، أما بالنسبة لي فكنت سريعاً في الركض، وأطلقت ساقاي إلى الهواء كما يجب وأنا أشعر بسعادة حقيقية، لأنها كانت تلوح لي بيدها، ولأنني كنت أركض حراً طليقاً في الأراضي الربيعية الحرة...

في اليوم التالي ظهرت الفتاة مع قطيعها في المنطقة، التي نحرث فيها. وقفت على هضبة قريبة، وهي ترعى الأغنام مع خرافها. رغبت جداً أن أذهب إليها، ولو لدقيقة واحدة، ولكن هل من الممكن لهذا الوحش أباكير أن يتفهم هذا؟ ولم أتنازل لأطلب منه هذا.

في المرة الثانية، عندما ظهرت الفتاة فوق الهضبة، كنت واقفاً مع أباكير إلى جانب الجرار، وهو يضج بمحركه. كان أباكير يتفحص بعض القضايا في المحرك.

- ماذا بها وما يدور برأسها، لقد تعودت على القدوم إلى هنا؟

- سأل أباكير.

- لا أعرف.

- وما اسمها؟

- أيضاً، لا أعرف.

- إيه، يا لك أيها الأكاديمي! - بصق أباكير بصورة ساخرة، ونظر إليها. - إنها كما يبدو فتاة ناضجة...

نظرتُ إليه، نظرة مليئة بالحقد والغضب.

- اذهب، واجلس في مكانك! - قال ساخراً، وهكذا، تابعنا العمل.

عند ذلك، قامت الفتاة بسوق أغنامها نحونا، حتى أصبحت على مسافة قريبة منا. آه، حبذا لو كان بإمكاني أن أركض إليها، وأجلس بجانبها، وأتحدث معها بكل بساطة، وأن أنظر وأتنعم برؤية قامتها الرشيقة...

توقف الجرار فجأة، ومد أباكير رأسه من النافذة وقال:

- ثبت دفة المحراث جيداً! وتعال إلى هنا!

نزلت عن المحراث، دون أن أفهم، ماذا يريد أباكير، فهو لم يسمح لي خلال العمل كل هذه المدة أن أدخل إلى حجرته.

- اجلس. - ترك لي مكانه وقال: - تعلم قيادة الجرار.

استغربت هذا الموقف، فلم أكن أنتظر هذا منه نهائياً، فماذا حدث لأباكير، وهل أصبح إنساناً جيداً؟ ولكنني، لم أفكر طويلاً، حتى أخذت أنفذ ما كان يأمر به.

اضغط على الدواسة. افتح الحركة. هكذا، ارفع رجلك عن الدواسة بهدوء، أمسك ذراع تبديل السرعة، وضعه على الدرجة الأولى.

عمل الجرار، وتحرك من مكانه، وسرنا على طول الأرض. لقد انقبضت أنفاسي من الفرح، فلم أعد أفكر بأي شيء، ولا أهتم بأي أمر كان في الدنيا. والأمل الوحيد، الذي كان يملأ نفسي: أن أجيد قيادة الجرار، وأتعلم خصائصه الميكانيكية. وكنت منذ أمد بعيد أحلم بهذا. وها هو الجرار الجبار، طيع بين يديّ، تحرك إلى الأمام، مع صرير معروف، وهو يفرك التربة بسلاسله، ولقد بدا لي الأمر، وكأنني تحولت إلى آلية، أركز، وبالدرجة الأولى على تنفيذ الأوامر بدقة حتى تكون النتيجة إيجابية.

عند نهاية الأرض، قمت بدوران نحو الشمال، وبدون مساعد، فلذلك تركت قطعة أرض بور، ولكن هذه، ليست مصيبة كبرى: فهل الأراضي قليلة في سهول أنارخاري، حتى يأسف على قطعة صغيرة، المهم الآن أنني تعلمت قيادة الجرار!

وهكذا قمنا بعدة مشاوير ذهاباً وإياباً، وقلبي لم يعد مضطرباً كالسابق. وأخذت أشعر بنفسي، أنني بدأت أتمكن تدريجياً من قيادة الجرار.

- انظر، يا أكاديمي، لا تغفل نهائياً! صرخ أباكير في أذني بشدة. - سأذهب لمدة قصيرة، وإذا حصل شيء ما، أطفئ المحرك!...

قفز أباكير من الجرار، وأخذ ينفض الغبار عن ثيابه وهو سائر، ويحسن من هندامه، ثم اتجه صوب الفتاة، راعية الأغنام، وكانت قريبة منا جداً، وهنا فهمت، وأدركت ماذا كان يخفي في أفكاره، وتبين أنه كان يبحث عن مصلحة له، حتى يجلسني في الحجرة، ويعلمني قيادة الجرار.

وقف أباكير إلى جانب الفتاة، وأخذ يتحدث معها بسرعة،

فما الذي يؤثر عليه!... العمل يسير، والجرار قريب منه، وفي حال حدوث شيء ما، بإمكانه خلال ثوان أن يكون عندي.

استغربت تصرف أباكير السيئ هذا، ولم يعجبني مطلقاً، ولكنني في الوقت نفسه كنت سعيداً، فأنا أقود الجرار وحيداً! وكنت أتمنى لو أنه بإمكاني أن ألوح لها بيدي من حجرة قيادة الجرار، وأن اصرخ لها بأعلى صوتي، بأجمل كلمات أعرفها. آه، كم كان شيئاً رائعاً، لو لم يكن هذا الـ أباكير هنا. وماذا يقول لها الآن، وبماذا تجيبه؟ حبذا لو تكون معه جافة، وتجيبه بكلام قاسٍ...

أما أنا، فلم أنزل عن الجرار مدة ساعة ونصف، حتى قامت الفتاة بطرد الأغنام، إلى الجهة الأخرى، وعلى وجه أباكير، لم تكن أية علامة تظهر أنه حقق نجاحاً ما. ولم يظهر عليه، سوى منظره العادي، الذي يعكس كبرياءه، وعجرفته وبلادته الذاتية، والرضا عن الذات.

- توقف، أيها الأكاديمي، وعد إلى مكانك! - ربت على كتفي، وابتسم باعوجاج...

لم أقل شيئاً، ونزلت عن الجرار.

أما الفتاة فقد عادت في اليوم التالي. فأبقاني أباكير في حجرة قيادة الجرار، وذهب إلى الفتاة. وكان من الأفضل لو أنها لم تأت، فأنا لم يكن باستطاعتي حينها أن أترك الجرار بلا عمل، وفي الوقت نفسه كان يصعب عليَّ أن أراها ولا أهتم لأمرها.

- "فكيف لي أن أنبهها؟" - فكرت بنفسي وأرسلت نظرات قلقة نحوهما. - عليها أن ترفض اللقاءات معه، ولكن كيف من الممكن أن أمنع الناس من الحديث مع بعضهم؟ فالإنسان نفسه يقرر ما سيفعل، ومع من سيلتقي...

في هذه المرة، غادرت الفتاة بسرعة، وأنا سررت بهذا، وهي تسوق أغنامها بسرعة أكثر وأكثر، وأخذت تركض في السهوب، دون أن تنظر خلفها "سامحيني، أيتها الفتاة اللطيفة، هكذا أرسلت لها رسالة حوارية نفسية أعتذر فيها أمامها، - وحسناً أنك غادرت بهذه السرعة. وأنا وإياك سنلتقي قريباً، وفي المرة القادمة، لن أبقى فوق الجرار، بل سوف أركض إليك، أما الآن فاذهبي، ولا تتوقفي، أيتها الفتاة الرائعة، يا ذات الشعر المنثور على الجبين.. فأنا، لا أعرف عنك شيئاً، حتى أنني لا أعرف ما هو اسمك...".

ولكنني، ربما أخطأت، بأنني سألتقي بك قريباً. الفتاة لم تعد إلى المنطقة نهائياً، ولثلاثة أيام متعاقبة، كنا نحن الاثنان، ننتظرها، دون أن نتكلم، بالطبع، عن هذا، بصوت عال. لقد كان أباكير عصبياً، وشريراً، أكثر من العادة، ومرة أخرى، نظر نحوي بصرامة، وبنظرة ثاقبة. ولكنني، الآن، لم أعد أخف احتقاري له، ولقد تيقنت، أنه وبفظاظته المعروفة، قد أساء للفتاة بشيء ما، وأنا أشعر بالخطأ أمامها. وكأنني لم أقدر أن أدافع عنها، أمام هذا اللئيم السيئ، وما قام به من تصرفات سيئة، وقطعت على نفسي وعداً: سوف أتكلم معها في أول لقاء، ولن أنتظر قدومها، بل سأبحث عنها، وأتحدث معها حديثاً من الروح للروح عن كل شيء، وأخذت أحلم بهذا اللقاء، كنت أتمنى هذا، وأحلم به.

وفي هذه الأيام، هطلت أمطار غزيرة مفاجئة، ولم يقتصر الأمر على الأمطار الغزيرة، التي تهطل عادة في السهوب، بل تساقطت كميات كبيرة من البرد، وعصفت الرياح بسرعة البرق، وتغطت الأرض ببرك المياه الواسعة، التي كانت تتراقص من فوقها فقاعات الأمطار الغزيرة، وكأنها تغلي على نار قوية. ولكن أباكير، لم

يوقف الجرار، بل على العكس، فلقد زاد من سرعة مسيره، ولم ينظر نحوي، ولو مرة واحدة، وهو يعرف جيداً، أنني أجلس تحت الأمطار والبرد، بلا وقاء، وبلا معطف.

عندما ارتوت الأرض بالماء، أصبح من الصعب حراثة الأرض، ولم تعد التربة تنهار على جانبي السكة، بل أصبح الطين يلتصق بالسكة، ويصعد إلى الأعلى كتلاً حتى يصل لرجلي. ولم يرغب أباكير بالتوقف، لولا أن الجنزير قد تلبد بالطين الكثير، وأصبح من الصعب عليه أن يدور بسلاسة. فقام أباكير بإطفاء المحرك ودخن سيجارة، ثم نام في الحجرة، وهو على ثقة أنني سأطلب اللجوء إليه في الحجرة. ولكن الأمر كان بالنسبة لي سيان، فأنا قد تبللت بالكامل وفضلت البقاء جالساً على المحراث، تحت المطر، أغسل الوحل المتكدس عن ثيابي. والشيء الوحيد، الذي حاولت أن أحفظه من رطوبة الماء، هو دفتر صغير فيه بعض المذكرات، والمقولات من الكتب المقروءة من قبلي، فوضعت هذا الدفتر، في مكان قريب من قلبي، وملاصقاً لجلدي.

توقف المطر فجأة، وكأنه نزع بدفة توجيه، وبحركة يد. وانقشعت الغيوم وعادت السماء إلى صفائها الأبدي الرائع، وكأنها كانت تتمة لتلك الجمالية النقية، التي بدت فيه سهول أنارخاي، المغتسلة بالأمطار الربيعية الغزيرة، والنقية. واتسع الأفق مسافات أخرى، ليعجز النظر عن رؤية نهايته. وها هو قوس قزح يربط بين مسافات طويلة، كجسر معلق بين الشرق والغرب، وبقي جامداً في مكانه في الأعالي بألوانه الزاهية، التي تجمع كل ما هو جميل في الدنيا.

نظرت بإعجاب إلى ما حولي. وكانت السماء زرقاء، زرقاء بلا نهاية، سماء فسيحة بلا حدود، يعلق فيها وبخيوط غير مرئية قوس قزح يختلج اختلاجاً جميلاً بألوانه العديدة فوق سهول الشيح الباهتة! ولم تمض فترة طويلة، حتى جفت الأرض، وفي الأعالي بدا في السماء صقر أخذ يحوم، بجناحيه الطويلين المفتوحين بلا حراك. وبدا الأمر وكأن الصقر لا يتحرك بدفع من جناحيه، بل بقوة نبض قلب الأرض وتنفسها، هما اللذان يبعثان التيار الدافئ في هذا الصقر المحلق، ويجعلانه يحلق ويحوم في هذا التوازن الرائع الجميل.

وهنا، شعرت بقوة هائلة تنتشر في جسمي، وأحسست بنشوة روحية، وانبعثت في داخلي الأحلام عن صقع أنارخاي. نعم، لقد وقفت آنذاك بكل قوة وصمود على الأرض، وليس بإمكان أحد، كان من كان، أن يسيء لأحلامي، ويغير تفكيري في حب جمالية أنارخاي الرائع. فأنا لست بشاعر، ولكن، كنت أكتب بعض الأشياء، وأنشرها في جريدة المدرسة الحائطية، ومنها بعض القصائد.

وها أنا أتناول دفتري الصغير من جنب قلبي، وأخذت أكتب الكلمات الأولى على صفحة من صفحاته الأولى:

تمتد خلف جبال كورداي
بلاد فسيحة أهملتها القرون،
ومن الجنوب يأتي الثلج قوياً،
تجفف فوق الحر الأبدي -
يا سهول أنارخاي البعيدة.
هكذا حكم القدر، وأنا أعرف هذا -
وذلك اليوم قريب، قادم على الطريق.

إليك يا صقع أنارخاي السعيد ،

فضاء سهوب الشيح!

أنا لم أفكر، بأنها كانت قصيدة فارغة، ذات أوزان وأسطر عوجاء، فالذي أزعجني شيء آخر، وهو أن هذه الأسطر، لم تكن تعبر عن واحد بالمئة من المكنونات، التي كانت تتزاحم وتختلج في روحي. لقد ضغطت على رأسي، وحاولت إجبار نفسي، وعانيت من الصداع، كيف لي أن أجد الكلمات الصادقة، حتى أعبر عن أحلامي، التي كنت أعيشها في كل دقيقة. وهنا ثمة شخص ما خطف من يدي الدفتر، فنظرت إلى الخلف.

- إنك تؤلف كتابات في الحب! - ضحك أباكير ساخراً، وهو يبتعد عني. - تريد أن تنفذ إلى الفتاة من خلال قصائدك؟...

- هات الدفتر! - هجمت عليه، وكلي حقد وكراهية. - ليس من الجيد أن تقرأ خصوصيات غيرك!

- لا تعلّمني: ما هو، جيد، وما هو سيئ! فعندي حس خاص بي! ابتعد عني! - قال أباكير بوقاحة.

- إذن، هكذا! - ركضت إلى الجرار، وأمسكت بمفك البراغي.

- تعال! تعال! - قال أباكير. - خذ دفترك، يا لتفاهة ما فيه.

- وأعاد لي الدفتر .

وبعد دقيقة، أخذ يقهقه، بصوت عال. كان ينهق لمسافات بعيدة في الحقول، وهو يسخر من بعض الكلمات مثل "صقع أنارخاي!".

- ها - ها - ها! يا لك من مجنون أيها الأكاديمي! فأمثالك،

يجب أن يرسلوا إلى هنا، حتى يعرفوا حقيقة الأمور.. يا لك من مبتكر، صقع أنارخاي! ها - ها - ها! سوف ترى فيما بعد، كم أنه صقع رائع! فابق هنا حتى الشتاء - ستغني أغنيتك بالمقلوب...

- لن أسألك، إن كنت سأبقى هنا، أم لا! ومن الأفضل لك أن تفكر بنفسك، وتهتم لأمورك!

- وماذا عليَّ أن أفكر؟ - أخذ يقترب أباكير، وعلى بوزه سخرية غامضة. - فرأسي على كتفي. وأنا، في كل مكان، أحصل على ما أريد.

ثم ابتعد عني قليلاً، ولكنه تذكر شيئاً ما، فتوقف، واقترب مني مجدداً، حتى أصبح أمامي مباشرة، وقال بصوت خافت:

- عليك، أيها الأكاديمي، أن تزيل من رأسك أي تفكير بها، فأنت لن تحصل عليها مطلقاً.. سأعطبك نهائياً!

- سوف نرى ما سيكون!

- أنا، قلت لك، حتى لا تفكر مطلقاً بهذا! ولا تتجرأ!

فجأة أخذت أفكر في وضع هذا الإنسان المتهتك، وحتى أنني أسفت على وضعه، فالشر والكره يعميان بصره عن كل ما هو إنساني من حوله.

- أنت إنسان ليس بصغير. أحياناً تتكلم أشياء صحيحة. - قلت له بهدوء . - ولكن هذا نادراً ما يحصل، وتكون في حالة عمى بصري كلي. وعليك أن تعرف، أنه لا يوجد إنسان يمنع الآخر من التفكير، أو أن يتمنى أو يحلم. فالناس يتميزون عن الحيوان، بأنهم قادرون على التفكير.

لا أعلم، هل أثرت كلماتي عليه، ولكنه التزم الصمت.

واقترب عابساً من الجرار، وبقوة مفاجئة شغل المحرك، فأخذ يعمل كما يجب، كان من اللازم أن نتابع العمل...

ومنذ هذه الساعة، لم تعد الأحلام تفارقني مطلقاً، لقد امتلكتها، ومن جديد دافعت عن حقي في هذا، وهي لم تعد تغادرني نهائياً. فكانت تعيش معي بكل أحاسيسي. عند المساء، وفي الوقت، الذي أخذ فيه الجميع يهيئون أنفسهم للنوم، خرجت من اليورتا، واتجهت إلى نبع عين الجمل الحبيب على قلبي، لا أعرف لماذا خطر على بالي أن أذهب إلى هناك. كنت أرغب بالجلوس وحيداً.

كانت النجوم تعاني من ضيق المكان، والازدحام في السماء، وكانت تتسابق في الأفق البعيد إلى مستوى الأرض، وكانت الأكثرية الساحقة منها، وربما جميعها، تتجمع فوق رأسي، وقد اتسعها النبع كلها. وانعكست أنوارها في هذه الدائرة المستديرة من النبع، الذي بدا الآن بلا قاع، وعميق بلا حدود، فكانت تتلألأ وتلمع على طريقتها على صفحة الماء. حتى بدا لي، أنه بإمكاني أن ألتقطها، وأقذف بها جانباً على حافة النبع. وهناك حيث كان يترقرق الجدول، كانت النجوم تسبح معه، متناثرة قطعاً صغيرة فوق القاع الحجري. وهناك، حيث كانت المياه تتجمع، في تفكير ساكن، وصامت، كانت النجوم تلمع، كما هي في حقيقتها في السماء. وأخذت أفكر أن هذا النبع، يذكر في الكثير من أوصافه، طبائع الإنسان، وواقع وضعه الروحي، عندما يكون نيراً وغنياً بالأحلام، وخاصة عندما تصبح عميقة، وتتسع في صدرها الرحب كل العالم المحيط.

جلست عند الينبوع، أخذت أنظر، وأستمع، متفاعلاً بكل كياني ووجودي، وأحسست بوحشة وصفاء الليل في السهوب.

واستوعبتها، حسب قدرتي العقلية والروحية، وتماثلتها في أحلامي الوفيرة. وحبذا لو كان عندي إنسان ما لأتقاسم معه هذه الأفكار والأحلام! ومن الصعب أن أشرح، لماذا هي بالذات، تلك الفتاة، ذات الشعر المنثور على جبهتها، والتي لا أعرف اسمها حتى الوقت الحاضر، هي ذلك الإنسان في أحلامي، والذي أرغب بإيجاده على الواقع، فهي التي يمكنها أن تفهمني جيداً، وأن تتقاسم معي مشاعرها، وكيف تكونت هذه المشاعر عندها وعندي، لأنها هي أول فتاة تعرفت عليها في هذه المنطقة، وهنا، عند هذا الينبوع بالتحديد، الذي أطلقنا عليه أنا وهي اسم عين الجمل؟

فأين هي الآن، وهل تعرف أنني أفكر بها؟ قريباً سننهي الحراثة، وعند ذلك سأبحث عنها في كل مكان، وسأجدها بشكل أكيد، وسأجعلها تأتي معي إلى هنا، إلى الينبوع، وأحدثها عن سهول أنارخاي. ليس شعراً، كلا، ربما ستسخر مني! - سأتحدث معها بأبسط الكلام، لأنني أتصور حياتي المستقبلية في سهول أنارخاي، وحدها.

وعندما جهزت نفسي للمغادرة. توقفت وحدقت مرة أخرى، إلى عين الجمل، حتى أرى فيه السماء بكل نجومها. ففرحت بكل ما رأته عيناي، وبكل ما كان بإمكان النظر أن يلم به. وهناك، فوق الهضبة كانت تقف ضبابية داكنة اللون، تلك الكتلة الصخرية، التي لا تملك شكلاً محدداً، وهي ما تدعى المرأة الحجرية. كنت أتصور، أنها كانت آنذاك، كما هي الآن تقف في مكانها، وهي تحافظ على عدم مبالاتها اللامحدودة بخصوص كل شيء، محدقة باتجاه الأفق البعيد، بنظرة ميتة من عينها الوحيدة الفارغة.

طلع البدر، وفجأة لاحظت ظل كائنين يسيران نحو الأرض المحروثة. لقد كانا زوجاً من الأيائل السهلية. فإلى أين يسيران؟ ربما جاءا إلى جدول الماء الخارج من الينبوع حتى يشربا. وصلت الأيائل إلى نهاية الأرض، وتوقفا، وكأنهما قد تسمرا إلى الأرض، وهما لا يجرؤان على الاقتراب أكثر، إلى الأمام، لقد خافا من هذه الأرض الناعمة المحروثة، التي تفوح منها رائحة دخان الزيوت والحديد. وقفا مدة طويلة، بلا حراك. وأخذ لونهما البني يبدو مع شيء من اللون الفضي تحت أشعة القمر. كان يملك الذكر سالحين طويلين، والأنثى أخفض منه قامة، وأنحف صحة، وذات عينين كبيرتين، ولامعتين في الظلمة. التصقت الأنثى برفيقها الذكر، وكأنها تحتمي به، أما هو فقد رفع رأسه عالياً بحذر وتيقظ، وهكذا تابعا الوقوف متعانقين مذهولين. لقد كان منظرهما، يعكس التساؤل والخوف: "ماذا حصل مع الطريق القديم، وأين هو؟ وأية قوة، قد قلبت الأرض رأساً على عقب وحرثتها وجعلتها ناعمة؟".

وهكذا لم يجرؤ زوج الأيائل أن يطأ هذه الأرض، فعادا، وبهدوء صامت من حيث أتيا، وهما يحملان على ظهريهما المرنيين، بعضاً من شعاع القمر الفضي الحزين.

جلست بعد هذا، قليلاً من الوقت، حتى يتمكن زوج الأيائل من مغادرة المكان بهدوء، ثم عدت إلى اليورتا، لجأت إلى مكان في الظلمة، ثم اضطجعت، وبقيت فترة طويلة أفكر بعينين مفتوحتين، وهنا سمعت همساً جاء من الزاوية الأخرى، حيث ينام أباكير وكاليبا معاً، كما كان يحصل هذا سابقاً، ولكنني لم أكن على علم بذلك سابقاً. لقد تكلمت زوجته شيئاً ما، وبنفور واضح، ولكن لم يكن مفهوماً ما تقول.

- كفي عن هذا، يكفي. - قال أباكير بصوت الراغب في النوم. - سوف نسافر إلى المدينة، وهناك سنجد حلاً، ستنامي يومين وينتهي الأمر... فلماذا تقتلي نفسك بلا معنى هنا؟

فأجابته كاليبا بحزن وكآبة:

- ليس من أجل هذا، أقتل نفسي. فأنا أكره وأحتقر نفسي. لماذا أحببت إنساناً بهذه الصفات؟ وماذا وجدت فيك من خصلة تحب؟ فأنا لا أفهم، ولو أنك، فعلت فعلاً حسناً للناس؟ كلا، فإنني كالكلبة علقت نفسي معك...

- لا، لا تندمي. سوف ننهي العمل، وعندها نغادر.

- كلا، إنني سوف أندم طيلة حياتي، وأتأسف لتعرفي عليك. وعلى أي حال، سأسافر، لأنني لا أريد أن أبقى وحيدة.

- تكلمي بهدوء! اقتربي مني، وتكلمي بهمس. حبذا، لو كان هذا منذ زمن، أما أنت.. لقد بللت الوسادة بدموعك...

وضعت اللحاف فوق رأسي، أردت أن أغفو، حتى لا أسمع هذا الحديث، الذي يزعجني.

5

أخذت الشمس، ومع كل يوم، تُصعد من وهجها، وخاصة في وقت الظهيرة، وأصبح ساروكين يتردد إلى موقع العمل أكثر من ذي قبل، وهو يحث الجميع على تنفيذ الخطة قائلاً: - من الضروري أن نزيد من سرعة العمل، فالوقت يضغط علينا، والأرض قد جفت. لقد بقي لنا خمسة أيام حراثة، وكذلك الأمر بالنسبة للقائمين على الزراعة.

كان ساروكين يتكلم، أنه ومنذ الخريف، سوف نندفع لزرع الأراضي المحروثة، وأنهم في العام القادم، سوف يرسلون إلى هنا،

الكثير من الجرارات، وسوف يقومون ببناء محطة كهربائية نهرية. لقد كان كل شيء عند ساروكين، محسوباً، حسب الأصول، فهو بدون كلل، ولا ملل، كان يمضي طيلة أيامه في الدراسات على الواقع، حتى أصبح يعلم بكل شيء عن ظهر قلب. وقد درسها حتى آخر حبة رمل.

كان ساروكين يخطط حتى ينهي موضوع نقل الأعلاف من مسافات بعيدة على الطائرات والسيارات، وخاصة إلى منطقة أنارخاي، في فصل الشتاء من كل عام. وكان ساروكين، يعرف جيداً كيف من الممكن حل هذه المشكلة.

أما أنا وأباكير، فقد أخذنا نحرث الأرض حتى ساعة متأخرة من الليل. وكنا ننام في السهل، وننهض عند طلوع الفجر لمتابعة العمل.

وكان العمل صعباً للغاية، حتى أباكير لم يعد نهائياً للتحرش البغيض نحوي، وتركني وشأني، وكأنه لم يلاحقني، أو يهمه وجودي، ولم يبد أي اهتمام بي. ولكن مشاعر الكراهية الكامنة، ما زالت تعيش وتتنامى في داخله، وفي عينيه اللئيمتين. ولكن هذا الأمر، لم يعد يهمني كثيراً. لقد عشت حياتي كما أرغب، وعملت أعمالي، وكنت أحلق أحياناً مع أحلامي. وانتظرت ذلك اليوم، الذي سأذهب فيه إلى الرعاة في الغيضة القريبة، خلف التل، لأبحث هناك عن الفتاة، ذات الشعر المنثور.

في هذه الأيام، بدأنا بحراثة الميدان الكبير، ويسرني دائماً، أن أبدأ عملاً جديداً، فما أروع أن يعيش الإنسان بالأمل الجميل، الذي يقدم له السعادة من العمل، الذي يقوم به. ومنذ دراستي كنت أحب أن أضع نقطة في نهاية المقطع، وأعود لأباشر من أول السطر وعلى صفحة

بيضاء جديدة. زد على ذلك، كنت أعشق الركض في صباح يوم تساقطت فيه الثلوج، وذلك قبل أن يطأ أحد فوق هذا الثلج الجديد، تاركاً أثراً له. وفي الربيع كنت أحب أن أصعد إلى الجبال لأجمع أحسن باقة من الورود الجبلية الجميلة، وقبل أن يراها أحد غيري. ففي هذا شيء من الخصوصية الروحية، التي تستقطبني حتى أكون إنساناً، بكل معنى الكلمة مع شيء من التجديد في طبائع البشر. وهنا في أنارخاي هذه الأثلام في الحقول البكر، كانت بمثابة الأسطر على صفحة بيضاء جديدة، وثلجاً لا يمس، ووردة لا تقارن بكل الورود.

جلست فوق المحراث، وأخذت أتمعن، كيف تشق هذه السكك من تحت بطن الأرض، بكل إرادة وتصميم، وتصنع الخطوط الحمراء في أرض بكر. فإن هذه السكك اللامعة لدرجة قصوى تشق عباب الأرض بكل بساطة، وتقلب التربة على طريقتها الغنية.

ومن تحت السكة الأخيرة، لمع شيء، وكأنها سمكة، قفزت فوق الموجة، وشعت بضوء خاص على صفحة السكة، ثم اختفت في الثلم، قفزت على الفور من فوق المحراث، وحفرت قليلاً في المكان، الذي ظهر فيه البريق. وهكذا أخرجت قطعة معدنية ثقيلة، صنعت بشكل متطاول. إنها كانت تعكس شيئاً جميلاً، وهكذا اندهشت مفتخراً من الفرح، وصرخت، رافعاً يديّ إلى السماء:

- يا لها من قطعة ذهبية جميلة!

نظر أباكير إلى يديّ، أوقف الجرار، وقفز فوراً إلى الأرض.

- ماذا وجدت هناك؟

- ذهب! انظر، يا أباكير، ذهب!

اتجه أباكير نحوي في بداية الأمر، بخطوات بطيئة، ثم أسرع الخطا، فقدمت له هذه القطعة الذهبية على كفي، يا لها من قطعة جميلة.

- عما تتكلم! - قال مشككاً، وهو يتناول القطعة، التي وجدتها من يدي، وأخذ يتفحصها ويمسح التراب عنها بكم سترته، - من أين جاء الذهب إلى هنا؟ - قال هو بصوت خافت، وبوجه شاحب، كمن يصاب بصدمة خوف قوية، - من غير الممكن.

وحاول أن يضحك ساخراً للتقليل من أهمية الأمر، ثم أخذ يحفر بأظافره التراب عن بعض النقوش عليها. وأعاد القطعة لي، دون أن ينظر في عيني، وكان شكله يدل عن عدم رضاه في إعادة القطعة.

- ولما لا! - احتججت على ما قاله بحدة. - انظر إليها كم هي ثقيلة، إنها تزن تقريباً ثمانمئة غرام. - ففي القرن الثاني عشر، عاش هنا المغول، وقبل أن يصلوا إلى هنا، كانوا قد استولوا على الصين، ونهبوا كل خيراتها، وخاصة الذهب. وهكذا، كان لها أن تصل إلى هنا! - كنت أقول هذا، لأنني كنت أرغب في أن تكون هذه القطعة ذهبية حقاً. غمرتني هذه الأمنية حتى أذني، وأخذت أغوص أكثر، في عالم الفنتازيا. ومن باب الإقناع بأنني كنت على حق، لنفسي أولاً، ثم لأباكير المذهول والمدهوش. - وهل تعلم يا أباكير كم من القرون قد مضت على وجودها في الأرض؟ فلو كانت من معدن آخر، لانتهت من الصدأ كلياً. أما هذه القطعة فقد حافظت على بريقها، لأنها ذهب صافٍ. وهنا، في منطقة أنارخاي، كانت حروب طاحنة بين قبائل الرعاة الرحل. وهل تعلم كم من المعارك قد دارت رحاها هنا! ولقد

تفنن الصناع بصناعة قبضات السيوف للخانات، والنقش عليها في تلك الأيام، وغالباً ما كانوا يصنعوها من الذهب. وهذه القطعة، التي بين أيدينا هي قبضة سيف، لخان قدير. امسكها بيدك، ألا ترى، كيف من المريح لليد الإمساك بها.

أخذ أباكير القطعة، وحملها بيد، ثم نقلها للأخرى، حتى يقدر وزنها.

- بغض النظر، عن أنها، ليست بذهب، من الضروري أن نريها لأناس مختصين، ولو كان ذلك من أجل الفضول! - وضع القطعة في جيبه. بإمكانك أن تسقطها من يدك وأنت فوق المحراث، وتضيعها، فدعها عندي في الحجرة.

- لا بأس، - وافقت معه.

توجه أباكير إلى الجرار، وهو يتلمس جيبه الثقيل الآن.

تقدمنا إلى الأمام، وأخذت أفكر، كيف سآخذ هذه اللقية إلى أستاذي ألدياروف، وأقدمها له كهدية للذكرى، فعنده مجموعة من هذه الأشياء التاريخية، وهو سيحدثني ساعتئذ عن الأوضاع التاريخية، التي ترتبط بلقيتي، وبالطبع سيكون هناك كثير من الأمور الممتعة، ثم تعبت، ونسيت كل ما يتعلق بلقيتي الذهبية. لقد أرهقتني الحركة غير المتزنة للجرار. ولم يسبق لأباكير أن قاد الجرار على هذه الطريقة: كان يبطئ السير عن قصد وبلا سبب، وكان يسرع أحياناً في الأماكن الوعرة، ويحرق أعصابي من صوت المحرك القوي، وكثرة الدخان الأسود الصاعد من أنبوبة القشطمان، والذي انتشر داكناً، كسحابة سوداء، فوق الأرض المحروثة، حتى تسرب إلى ما تحت المحراث والسكك وهكذا عملنا حتى نهاية النهار. وغابت

الشمس، ولكن الضوء ما زال منتشراً، أما أباكير فقد كان يلتفت، عبر كتفه نحوي، من حجرة القيادة، وهو يقذفني بنظرات غير محددة، وغير مفهومة، على غير عادته. وها هو يوقف الجرار أخيراً.

- تعال إلى هنا! - أشار لي بيده منادياً.

صعدت إلى حجرة القيادة. كان أباكير شاحباً، وعيناه مرتبكتان في إبصارهما. أخذ يمسح العرق المتصبب على جبينه، ثم قال من خلال ضجيج المحرك القوي:

- لا توجد لديَّ القوة للصراخ. اذهب وثبت دفة تحريك المحراث. ثم تعال إلى هنا، واحرث على الجرار بعض الوقت، فأنا أشعر بسوء في صحتي، ثمة شيء سيئ، وألم في أحشائي. سأذهب، وأتجول قليلاً في الهواء الطلق، ربما يتحسن وضعي قليلاً...

- اذهب، اذهب! - أجبت أنا.

خلال هذه اللحظات البسيطة من ذهابي إلى المحراث، وعودتي، كان أباكير قد نزل إلى الأرض، وتكدر وضعه جداً على حين غرة، وكأنه قد حل لونه كلياً، وتحول إلى أصفر. وذهب صامتاً إلى جهة بعيدة نسبياً، وأخذ يحدودب حتى تقوس ظهره.

- "نعم، ربما مرض بشدة. يبدو أنه يعاني من آلام في بطنه ويبدو أنها آلام شديدة". - فكرت في قرارة نفسي، وشغلت محرك الجرار، وأخذت أحرث.

سار الجرار بصورة مستقيمة، ودون ضجة وتباطؤ، وسرعة بلا معنى، بل سار سيراً قوياً، وها هو من جديد ينصاع لإرادتي، كما في كل مرة. كنت قلقاً نسبياً، وحاولت أن أقود الآلية بدقة، وفي نهاية الميدان، استدرت كما يجب وعدت إلى حيثما انطلقت.

عم الظلام فوق الأرض، وانتشرت موجة من الصقيع "سوف أقوم بدورتين، وبعدها سأشغل المصابيح". - فكرت في نفسي، وأنا أحدق النظر في مساري. ومن أمامي وعلى مسافة لا بأس بها، خلف الهضبة وعند المنحدر، ثمة شخص، ظهر فجأة واختفى، بعد أن أسرج الحصان، وانطلق يعدو إلى الأسفل واختفى. لقد رأيت ظهره فقط. إنه أباكير، فماذا حصل له؟ وإلى أين يعدو؟ ربما شاهد شيئاً ما. وعندما وصلت إلى منتصف الحقل. أخرجت رأسي من نافذة الحجرة، ووقفت في مكاني لدقيقة، ولكنني لم أر أباكير، فأين اختفى؟ فهو على حد علمي، مريض، يا للغرابة، أوقفت الجرار، ثم حولت السرعة إلى الدرجة الدنيا، وصرخت بأعلى صوتي:

- أباكير! يا أبا... كير!

لم يجب أحد. وعند ذلك أطفأت المحرك نهائياً وأصغيت حتى أسمع أي صوت كان.

- أبا... كير! أين أنت؟ أجبني! - أخذت أنادي عبر السهوب ولكن الوهاد، التي خيم عليها الفيء عند العصر قد التزمت الصمت.

ربما ساء وضعه جداً؟ وتصورته، وهو يسير مقوساً، ثم وقع على الأرض، وليس بإمكانه أن يجلس، أو يقف.

قفزتُ من فوق الجرار، وأخذتُ أركض بأقصى جهدي. تجاوزت الهضاب ووقفت على مرتفع، وأخذت أنظر من حولي، ومن هناك رأيت أباكير، وهو يسرع السير في السهول. لقد كان بعيداً عني.

وقفت قليلاً، ثم عدت أدراجي متردداً، وفي الأفق ظهرت آخر الغيوم في الأفق البعيد أمام أضواء الشمس، التي اختفت خلف الأفق. بينما انتشرت الظلمة فوق التلال والسهول.

سرت مرتبكاً، لا أعرف كيف أتصرف كمن شُل تفكيره. شيء غريب، وغير معتاد. وبدت لي هذه الطبيعة الصامتة في حزن وكآبة، وكأن السهول كانت تصغي بانتباه إلى أصوات وقع خطاي، وتتحسس أفكاري جميعها، بما في ذلك كيف كنت أفكر بأباكير، وعندما كنت أحدثه، عن تاريخ هذه المنطقة وما كان في واقع الأمر، فإنه كان يسخر مني، ولم يصدق أي شيء مما قلته له. أما الآن وقد صدقت تخيلاتي، عندما وجدت هذا الذهب التعيس، فإن أباكير فقد عقله، وأضاع رأسه... وأمثاله لا يضيعون رؤوسهم! لقد كان قد قرر هذا في نفسه، وبما يتناسب مع لؤمه، وكان يهدد بهذا. وهكذا كان يتصرف، وكأنه يخيف ساروكين، فإنه كان يسيء للجميع هنا، وقد اختلف مع الجميع، وتشاجر مع كل واحد على حدة. أما كاليبا زوجته، فكان يتصرف معها بلؤم شديد ليس له حدود، وأراد أن يتخلص منها بأي شكل، فلماذا هي تلزمه، وهي حامل، لا جدوى منها! وعلى أي حال، ماذا بقي له، فالبارحة استلم النقود، وهي ليست قليلة. وهو لم يبق نقوده في اليورتا، أو مع زوجته، بل كان يحتفظ بها معه، وهذا يعني، أنه لم يفعل هذا كله عبثاً. فلقد عمل يوماً واحداً بعد استلام أجرته، زد على ذلك، هذه اللقية، وخاصة إذا كانت من الذهب الصافي...

قطع صوت كاليبا سلسلة أفكاري:

- إيه أباكير! يا كميل! أين أنتما؟

لقد جاءت كاليبا، لنا بالماء في صفائح، وذلك لضرورة العمل الليلي، واستقبلتني كاليبا قلقة للغاية، وهي تقول:

- أين أنتما، أين اختفيتما؟ لقد قلقت وخفت جداً. انتظر، انتظر، أنادي، الجرار واقف، وأنتما غير موجودين!

فماذا كان عليَّ أن أخبرها؟ فتحدثت بالحقيقة:

- لقد غادر أباكير، وترك العمل.

- آ... لماذا؟ - تلعثمت كاليبا في كلامها، وهي تسأل.

- لا أعلم. - أجبتها بامتعاض.

أما عن الذهب، فلم أتحدث شيئاً. لقد خجلت من قول هذا عن أباكير.

- هذا يعني، أنه غادر؟.. - قالت كاليبا بحقد، ثم خطفت الصفائح المملوءة بالماء عن العربة وأنزلتها إلى الأرض. - لماذا أقوم بنقل هذا الماء؟ - تابعت كاليبا مرتبكة، ودون أن تخاطب أحداً.

حملتُ صفيحة ماء إلى الجرار، وسكبتها في الردياتير، أما كاليبا، فقد توجهت إلى حجرة الجرار وأخذت تبكي بمرارة.

لقد تأثرت جداً لوضعها، ولم أعرف كيف لي أن أخفف من آلامها، فقلت لها وأنا غير واثق من كلامي.

- ربما سيعود...

- لست أبكي على فراقه، - قالت هي، وبالكاد تلتقط أنفاسها، وقد اتجهت نحوي بسرعة، وكان وجهها مخضباً بالدموع، التي تساقطت بغزارة، - لقد صدقته، وحلمت! فبماذا صدقت؟ وعن أي شيء كنت أحلم؟ - أخذت تصرخ بصوت عال، ولكنه ينمّ عن صحة ضعيفة تعبة، حتى أنها في هذه السهول الخالية من كل شيء، جاء صدى الصوت واهناً كالأنين. - لقد فكرت أنه شاب، يحب العمل، وفكرت بأنني سأساعده على انتزاع صفة الشر من نفسه، وأردت بالحب، والخير أن أبعث الخير في عالمه. أما هو؟ فماذا يمكن القول... فالحصان يعمل بلا كلل، ولا ملل. أما الإنسان فعليه أن يكون إنساناً، والروح فيه قبل أي شيء آخر، وعند ذلك يكون العمل سعادة

حقيقية، وتكون هناك قيمة للعمل... أما هو، فلم يفهم شيئاً. كما كان، بقي كما هو، وغادر كما جاء. كم هي مصيبة كبيرة في نفسي. لا يعرف أحد، كم هي كبيرة مأساتي!

التزمت الصمت، وأنا منقبض النفس، ومكتئباً للغاية لدرجة الغم. لقد كنت حزيناً على وضع كاليبا، وأعني وضعها السيئ جداً. لم أفهم أنا، كيف كان بإمكانها أن تحب مثل هذا الإنسان... ولو أن أباكير قد عرف، ولو أنه كان يفهم أية سعادة حقيقية قد فقد اليوم. وبمغادرته، تاركاً كاليبا، كان عليه هو، وليس هي، أن يعوي ويجوح ألماً كالذئب في الشتاء القارس.

جلست كاليبا في العربة، وغادرت صامتة.

أما سهول أنارخاي، فقد نامت هادئة، إلا أنه، ومن مكان بعيد جاء صوت صفير قطار متأرجحاً، ومتدحرجاً مع حفيف الشيح اليابس، الذي تتقاذفه الرياح، وانحدر للأسفل حتى وصل لأسماعنا. ربما يكون أباكير قد غادر على متن هذا القطار المخصص للشحن؟... اذهب بلا رجعة، أيها اللئيم، كان عليك أن تغادر منذ زمن بسبب حقارتك! فسهول أنارخاي ليست بحاجة لأمثالك، والعمل سيسير بدونك أفضل من السابق...

لم أرغب يوماً بأن أتذكره، وكان علينا أن نتابع العمل. فبقيت فترة لا بأس بها حتى تعلمت كل شيء عن الجرار، ولم أعد أخاف من ظلمة الليل، لأنني صرت أجلس في حجرة القيادة، وأشغل المصابيح.

الآن أصبحت مسؤولاً عن الجميع. وهنا أردت، وبصورة مباشرة، أن تكون إلى جانبي فتاتي اللطيفة، ذات الشعر المنثور فوق جبهتها، وحتى تثق بي، وبوعدي، أنه ستبنى، وبشكل أكيد بلاد أنارخاي الرائعة في سهوب الشيح البري.